التوجيه الإسلامى لمجال لأصول التربية *

١- مقدمـــات أساسية

علم أصول التربية بين العلوم التربوية :

لا نود في هذه الدراسة محددة الغرض ، أن نستغرق في بيان قيمة التربية ووظيفتها بالنسبة للإنسان والمجتمع وقتا طويلا ، وإنما يكفينا هنا الإشارة السريعة إلى أن العملية التربوية هى التى تكسب الإنسان إنسانيته بمقدار ما تستثمر ما وهبه الله له من إمكانات تربوية تتمثل في قدرته الهائلة على التعلم واكتساب كم هائل من المعارف والمعلومات والحقائق والاتجاهات والميول والقيم العادات والمهارات.

وبفضل هذه (الإنسانية) يستطيع الإنسان أن يتواصل مع غيره من أبناء البشر ، أفقيا عبر المكان ، ورأسيا عبر الزمان ، فتتراكم الخبرة وينمو العلم وتتقدم البشرية وتتلاقح المجتمعات الإنسانية فكريا وتطبيقيا.

ونتيجة لهذه الأهمية وتلك القيمة للعملية التربوية للإنسان ، كان طبيعيا أن يخضعها هي نفسها لتأملاته لينتهى نتيجة هذه التأملات بكم من المعرفة التربوية تتناول تصوره للأسس التى ينبغى أن تقوم عليها التربية والطريقة المثلى للتعليم ، والعلوم التى يصح للإنسان أن يتعلمها ، وأولويات التعليم بالنسبة لهذه العلوم من حيث مرحلة النمو ومن حيث الحاجة الاجتماعية ، والتصور الخاص بطبيعة التلميذ المتعلم ، إلى غير ذلك من نقاط اجتهد في التفكير فيها عدد كبير من المفكرين الكبار الذين شهدناهم على مسرح الفكر البشرى مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو ، فضلا عن مفكرى العالم الإسلامى.

---

* مؤتمر التوجيه الإسلامى للعلوم ، إتحاد الجامعات الإسلامية، مع جامعة الأزهر، أكتوبر عام١٩٩٢م

obeikan.com

وكانت المعارف التى يصل اليها المفكرون ، إنما هى محصلة (تأملات) ، جعلت من التربية أسيرة (الخبرة) وحدها دون أن تتمكن المعرفة التربوية من أن تغزو العمل التربوى لتفيده بنتائجها إلا فيما ندر.

ثم استطاع المنهج العلمى والمعرفة المضبوطة والمنطق العقلى الدقيق ، أن يخطو بالمعرفة التربوية خطوات هائلة إلى أمام لتكتسب صفتها (العلمية) حتى بدأ التربويون يتصورون أنهم قد اقتربوا من أن يحققوا حلمهم بأن تكون التربية (علما) ، لكنهم ، مع ذلك ، لم يصلوا إلى تحقيق هذا الطموح ، لا لعجز فيهم ولا لتأخر وانتكاس في تطور المعرفة التربوية، وإنما بسبب (المثال) و (النموذج) الذى قاسوا خطواتهم نحوه عليه.

فمنذ وقت طويل كان يتم مطابقة العلم مع الفيزياء ، وخاصة مع الميكانيكا ، وكانت الطريقة العلمية تطابق الأساليب التجريبية التى تجرى فيها الملاحظة تحت شروط منضبطة في العمل ، وقد أفسح ذلك مكانا لفكرة أن العلم هو أسلوب دقيق وتجريبى يؤدى الى اكتشاف " القوانين الطبيعية " ، وعندما تم اكتشاف فروع أخرى من المعرفة مثل علم طبقات الأرض ، وعلم النبات ، وعلم الأحياء ، وعلم الأجواء ، وعلم المحيطات ، وعلم الحياة، وفيما بعد الاقتصاد ، وعلم النفس والطب ، وحتى علم الاجتماع والعلوم السياسية ، وانضواؤها جميعا تحت تعريف العلم المتزايد في الاتساع ، لم يعد من الممكن النظر إليه كشئ دقيق ، ولم يعد من الممكن أيضا اكتشاف " القوانين الطبيعية" في المجالات المختلفة . إن عالم الأحياء ، أو عالم الأجواء ،أو العالم الاقتصادى سوف يجد نفسه في مواجهة موقف يتضمن مئات الملايين من العوامل. غير المنضبطة. وفي مثل تلك الظروف ، فإنه يكون من الممكن فقط الاستدلال على علاقات تجريبية أو إحصائية ، أو بالنسبة لبعض العلوم الأخرى ، فإنه يكون من الممكن تصنيفها على أساس الارتباطات أو مجرد الوصف.(١)

كذلك كان لابد للتربية أن تتأثر بما لها من علاقات عضوية بفروع المعرفة الأخرى المختلفة ، وبجوانب الحياة المتعددة - الثقافية والاقتصادية والسياسية ، وأصبحت بذلك مجالا أقرب إلى التكنولوجيا منها إلى علم مستقل بذاته ، له قوانينه الخاصة وحدوده الضيقة ، مثل الكيمياء والطبيعة ، فهى مجال تطبق فيه نتائج العلوم المختلفة تطبيقا فنيا ، مثلها في ذلك مثل مجال الزراعة ومجال الطب ، فالزراعة لا تعتبر علما بذاته ، إذ تفيد من علوم مختلفة في معالجة العناصر المكونة لها ، حيث أنها تتصل بالتربة وبنوع المحاصيل ، وبالمناخ ، والسوق وغير ذلك ، ولهذا تلجأ إلى علوم الحشرات ، وعلم الاقتصاد وغيرها مما يتصل بها، وهكذا بالنسبة لمجال الطب وموضوعه جسم الإنسان ، فهو ليس علما مستقلا وإنما يقوم على نتائج علوم مختلفة مثل علم التشريح ، وعلم الأمراض ، وعلم الأدوية ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان ، فيطبق نتائج هذه العلوم في تشخيص جسم الإنسان ودراسته ، وما يتعرض له من أمراض ويحللها ويصف لها العلاج.(٢)

ومن هنا نستطيع القول بأن التربية تستند إلى أصول مستمدة من العلوم والدراسات التى تفيد في فهم جوانبها المختلفة ، مثل علوم الدين والنفس والإجتماع ، والتاريخ والسياسة والاقتصاد والفلسفة والحياة وغيرها .

فلها أصولها الدينية التى تجعل - بالنسبة للمسلمين - من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أصلين تستمد منهما المقومات الأساسية (للمذهبية) أو (الإيديولوجية) التى تقيم عليها نظمها وتصوراتها المختلفة ، ولهذا نشأت علوم أخرى مثل : تاريخ التربية الإسلامية وفلسفة التربية الإسلامية وأصول التربية الإسلامية ، ونظم التعليم في العالم الإسلامى .

ولها أصولها الإجتماعية والثقافية ، تلك الأصول التى جعلت العملية

التربوية لا تدور حول الفرد وحده وإنما كذلك حول المجتمع ، فنشأ ما يسمى بعلم اجتماع التربية ، وأنثروبولوجيا التربية . ولها أصولها النفسية، على أساس أن (المتعلم) هو الوعاء الذى تصب فيه العملية التربوية نتائجها مما يوجب الوعى بقدرات هذا المتعلم واستعداداته وميوله وخصائص سلوكه وصحته النفسية وعلاقاته بغيره من الأفراد والجماعات ، مما تعنى به علوم النفس المختلفة ، فنشأ علم النفس التربوى الذى يعد جذعا رئيسيا تتفرع منه علوم أخرى .

وللتربية أصولها الفلسفية من حيث أن العملية التربوية إنما هي (تنفيذ) و (تشخيص) لإطار فكرى كلى عام يرسمه هذا المفكر أو ذاك لهذا المجتمع أو ذاك ومن ثم يكون له أثره وتشكيله لمسار العمل التربوى ، كما رأينا على سبيل المثال بالنسبة للمجتمعات التى انتهجت النهج الماركسى فترة من الزمان وصل إلى ما يزيد عن السبعين عاما في الاتحاد السوفيتى ، ومثلما حدث قبل ذلك في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشيستية.

.. وهكذا يمكن القول بالنسبة للأصول التاريخية والأصول الاقتصادية والأصول السياسية .

وربما نستنتج من هذا أن للتربية خصوصيتها ، لا استقلاليتها ، والخصوصية هى خصوصية الموضوع ، أو بعبارة أخرى خصوصية حدس التربوى الذى يدله على أن موضوعا ما يستحق الدراسة ، لأنه لا توجد طريقة بحث تصنع الموضوع ، كما لا تصنع الكلمات قصيدة شعر ، أما تصور الاستقلالية عن التخصصات الأخرى من أجل التخلص من (التبعية) للنظم المعرفية ، ومن أجل إلغاء التداخل بينها ، فهذا أمر لا جدوى منه . ونحن نعرف أن مؤرخا كبيراً مثل (توينبى) كان متفردا لأنه لحم بين التاريخ وبين بعض نظريات علم النفس الاجتماعى ، ومعظم آراء جون ديوى ، المربى الأمريكى الشهير تستند إلى علوم نفسية ونظريات فلسفية ومنطقية.(٣)

وعلم ، أو بمعنى أصح (مجال) أصول التربية ، بكشفه عن العلاقات والروابط بين النظم الاجتماعية المختلفة والعلوم المتصلة بها ، يعين (علوم) التربية الأخرى على حسن الوعى بحقيقة (المجتمع) الذى تعمل من أجله وفي ظله ، إن الدراسات الأصولية تحاول أن تجيب عن السؤال الهام والرئيسى الذى يواجه المربى ، وهو : لماذا نربى ؟ بينما نجد علما مثل المناهج يحاول الإجابة عن السؤال الأول : لماذا نعلم ؟

لماذا التوجيه الإسلامي لأصول التربية ؟

الأصل ، أن واجب كل مسلم أن يصدر فيما يفكر وفيما يعمل ، وبالتالى فيما يتعلم وفيما يعلم، من العقيدة التى يؤمن بها حتى يستكمل مقومات إيمانه بالإسلام ، لكننا جريا على سنة الإسلام نفسه من حيث أن القول لابد أن يرتبط (بالدليل) ، كان من الضرورى أن نسوق هنا بعضا مما يجعل من إعادة النظر في (أصول التربية) بوضعها الحالى أمرا ضروريا من خلال المنظور الإسلامى . ونقول (بعضا) لأن موضوع الدراسة كلها يحمل في كل سطورها هذه الأدلة والشواهد ، وما نسوقه هنا إنما على سبيل التمثيل والتكثيف.

إذا نظرنا إلى المجتمع الإسلامى المكون من عشرات الدول ، من خلال (مفهوم النظام المتكامل) ، فإن كل دولة فيه تكون نظاما فرعيا ، وكل نظام منها يتكون من عدة نظم فرعية ، كالنظام السياسى والنظام الاقتصادى ، والنظام الاجتماعى والنظام العسكرى ، وغير ذلك . وإذا كانت هذه الأنظمة الفرعية الصغرى والأنظمة الفرعية الأوسع ، والأنظمة السياسية القطرية تسير وفق أهداف موحدة ، قلت التناقضات بين سائر هذه الأنظمة ، وعزز بعضها بعضا ، أما إذا كانت التناقضات هى الغالبة ، والأهداف الكبرى غير متفق عليها ، فإن الأمة و المجتمع يعانيان تآكلا

داخليا ، وتصبح محصلة المجاهدة في الحياة والعمل والإنتاج من حيث الصورة الكلية للأمة ضئيلة ، إن لم يكن لا تأثير لها في الأحداث بالنسبة للأمم الأخرى خارج نطاق العالم الإسلامى. (٤) .

وإننا نخشى أن نقول إننا نعيش اليوم في مرحلة من أردأ المراحل في تاريخنا العربى والإسلامى ، حيث تعيش الأمة كلها فى أزمة ، أزمة داخلية ، وأزمة خارجية ، تعددت أسبابها وعواملها ، كان لها أثر كبير على المثقفين والمفكرين المسلمين المعاصرين الذين ولدوا في الأزمة ، وربما كانوا نتاج عملية التأزم ، بعضهم ثقافته أجنبية لا تمت إلى ثقافة الأمة بصلة ، فكيف يستطيع حل أزمة الأمة ؟ وبعضهم ثقافته قاصرة ، غير متكاملة ، تقصر عن معايشة العصر ، فتنعدم القدرة على الإسهام في مشكلات المجتمع ، أو تشكيله نحو نموذج مرغوب.(٥)

وأزمة الفكر الإسلامى المعاصرة هى اليوم أعمق ما تكون ليس بسبب العزلة الطويلة التى أورثت هذا الفكر عجزا وضمورا ، ولكن التفكير في سبل إصلاح هذا الفكر لم يتبين التغير الذى الذى طرأ على ميدان المعرفة والثقافة في العالم المعاصر ولم يدرك نقاط القوة في أصول المعرفة الإسلامية ولم يتبين الدروس من تجارب الماضى ، ولذلك كثر التأكيد على الحاجة إلى فتح باب الاجتهاد أو التأكيد على أنه لم يغلق قط . ومع ذلك يظل الفكر عاجزا والاجتهاد مفقودا وإن بدت قبسات تظل استثناءات تلتصق بمصادفات التكوينات الخاصة بأصحابها دون أن تتحول إلى مدارس ومناهج في المعرفة والثقافة والفكر .(٦) .

إن الأزمة تكمن في انفصام العقل والنقل في أصل المعرفة لدى الأمة الإسلامية ، إن الأزمة تكمن في طبيعة منهاج الدراسة الإسلامية التى تتركز في علوم النصوص واللغة والمتون الفقهية الموروثة . الأزمة تكمن في أن

العقلية الإسلامية تتجه نحو الفقه بمفهومه التاريخى لكى يحل أزمة المعرفة والثقافة الإسلامية ويقدم الاجتهادات والحلول والبدائل الإسلامية الحضارية للأمة .(٧)

وقد يبدو من المفارقات أن نطالب بتوجيه التربية توجيها إسلاميا في ديار العرب والمسلمين ، ولكن سرعان ما تزول الدهشة ، حين نعلم أن معظم بلدان العالم الإسلامى في القرن الأخير ، قد ابتعدت عن تطبيق شرع الله ، لسبب أو لأخر ، فأصابها الضعف والهوان ، وأصاب نظام التربية والتعليم فيها ما أصاب الأمة الإسلامية نفسها من تمزق وضياع (٨) ، من عوامله :

– أن جميع الأقطار الإسلامية عانت لفترة طويلة من التخلف ، منذ بدء توقف الحضارة الإسلامية عن دورها القيادى بعد الغزوين المغولى والصليبى .

– أن الفترة التى سبقت عصر الاستعمار الحديث ، كانت فترة خمول حضارى وثقافى في العالم الإسلامى ، وإن النشاط الثقافى والعلمى كان قاصرا على الشروح والتقليد والتكرار

– أن أقطار العالم الإسلامى بدأت تقع منذ أواخر القرن الثامن عشر تحت سيطرة ونفوذ الدول الأوربية المستعمرة .(٩).

– لقد قامت محاولات إسلامية للتحرر من الاستعمار ، وإعادة الأمة الإسلامية أمة واحدة متحررة ، وإن القوى الإستعمارية حرصت كل الحرص على التصدى لهذه الحركات وإفشالها بكل الوسائل والإمكانات.

أن الحركات الاستقلالية في جميع الأقطار الإسلامية قامت على أسس قومية أو إقليمية ضيقة محدودة . وظهرت في كل قطر قيادات تؤمن

بالواقع الانفصالى عن الأمة الإسلامية ، وبرزت إلى الوجود كيانات سياسية حددت لها معالم جغرافية تطورت مع بداية عهود الاستقلال ، ليصبح كل منها دولة ذات كيان اجتماعى واقتصادى مستقل .(١٠)

ويتفق علماء التربية على أنه لابد للمعلم من فلسفة في الحياة تمكنه من القيام بمهمته التربوية على الوجه الأمثل ، كما أنه لابد للتعليم من فلسفة واضحة تنبعث من تراث الإنسانية وقيمها وفي مناهجها وأساليبها ومختلف طرائقها ومعاييرها ، وفي كل أمر من أمورها . وعلى الرغم من ذلك فإن المتتبع لأمور التربية في بلداننا الإسلامية يجدها ، بصفة غالبة ، قد أصبحت علمانية ، خالية من الارتباط الصحيح بالعقيدة ، وأن معلمى اليوم في أغلبهم لا يملكون فلسفة تربوية محددة ، والقلة النادرة التى لها فلسفة منهم قد تبنت فلسفات مادية تناقض المقولات الأساسية للعقيدة الدينية.(١١)

وتفتقر النظم التعليمية السائدة – في أغلبها – إلى النظرة الإنسانية الشاملة ، وذلك لأنها (في أفضل صورها) تهدف إلى تخريج " المواطن الصالح " وليس " الإنسان الصالح " ، ومن هنا فهى تقصر أهدافها في أطر قومية أو عنصرية أو إيديولوجية ضيقة ، وتنسى التأكيد على معنى الأخوة الإنسانية ، والمصير الواحد للبشرية ، وأننا نحيا هذه الحياة الدنيا على كوكب واحد ، ما يصيبه في أصغر أجزائه ، يتردد صداه في مختلف أرجائه ، خاصة ونحن أصبحنا نعيش على أرض تتهددها أخطار بيئية عديدة ، وقصر أهداف العملية التربوية فيْ مثل تلك الأطر القومية أو العنصرية أو الأيديولوجية ، يطبع المتعلمين بطابع التعصب وضيق الأفق فتتملكهم النعرات القومية والجاهلية وينعكس ذلك على تصرفات الساسة والقادة والإداريين.(١٢)

واننا لنخرج من كل هذا ، أنه لن تقوم للمسلمين حضارة ولن يلتئم لهم شمل ، بل لن يستطيعوا أن يتميزوا في الخلق كجماعة لها رسالتها مالم تتوحد لديهم فكرة " إسلاميتهم " وتتضح معالمها بحيث تصبح دستور العالم وعقيدته ، ويعيش من أجل تحقيقها ويحس في قرارة نفسه حرارة الإيمان بها والسعادة القصوى في الجهاد في سبيلها وحتى تصبح تلك الإسلامية المعين الثرى الصافى الذى يستقى منه العلماء والمصلحون والمشرعون حين يعالجون جوانب الحياة المختلفة ، ويرسمون للمجتمع الجديد نظم حياته المعاشية ، واعين مشاكل العصر ، ومجيبين علي ما تطرحه من أسئلة وقضايا مستحدثة . (١٣).

٢- التوجيه العلمانى للدراسات التربوية عامة ولأصول التربية خاصة

تهيئة المسرح الاجتماعى والثقافى :

نحن نعيش في عهد تغلب عليه الصبغة الغربية العلمانية في التربية والحضارة وفي المظهر الخارجى للتفكير والتدريب الثقافى ، هذه الحقبة يمكن أن تدعى بحق حقبة الاستعباد الفكرى مسبقة بالخضوع السياسى والعسكرى .

هذا الاستعباد الفكرى كان في الغالب أثرا من آثار الحكم الإمبريالى الغربى الطويل الذى خضع له العالم الإسلامى . ولكن السبب الحقيقى لبقائه هو الطريقة الأكاديمية والثقافية الحالية التى ترتكز على التصور الغربى للثقافة وتنمو وفقا للنموذج العلمانى ويديره رجال تثقفوا وفقا للتقاليد الغربية المدونة وتزخر بها كتبهم التاريخية والعلمية ذات المظهر والمضمون الغربى . (١٤)

فمن السهل تغيير مظهر التاريخ . ولقد تعددت الجهود في العالم

الإسلامى خلال المائة سنة الماضية لتعديل التاريخ بصورة ثقافية مقبولة .صحيح آن بعض هذه الجهود قد صادفها النجاح الجزئى ولكن الإشكال الحقيقى ينحصر في لمؤلفات الإنسانية والعلمية التى كانت تدرس والتى ظهرت صعوبتها الشديدة وعدم جدواها ، فالمؤلفات في العديد من الموضوعات لا يمكن إتمامها إلا إذا كانت المواد التى تعالجها قد تطهرت وأعيد تدوينها وتنسيقها.

إن جميع العلوم سواء الاجتماعية أو الإنسانية وحتى الطبيعية أو الكيميائية إنما تحوى مجموعة من الأفكار والمعلومات المنظمة والمنسقة وفقا للأفكار والمعتقدات والمظهر والظروف الاجتماعية والوسط الفنى والأدبى لو ضعيها وخبرائها .(١٥)

فهم ينظمون وينسقون علومهم وفقا لاحتياجاتهم الفكرية والأكاديمية والإيديولوجية ، وهكذا ، فالعلوم التى توضع وتتطور وتنمو بمعرفة شعب أو، أمة معينة إنما يتم هذا بواسطة المفاهيم الأساسية المشكلة وفقا لتصوراتها ومظاهرها وهى أيضا تغذى بتقدمها التاريخى .

والعلوم التربوية ، مثلها مثل مختلف العلوم الاجتماعية ، التى ورثناها عن الغرب تعتبر مثالا واضحا لهذه الحقيقة ، فقد نشأت في الغرب ونمت وفقا لخلفية تاريخية غربية خاصة بها ، كما أن مضمونها وروحها لها طابع أوربى واضح ومحدد تماما(١٦) . فكيف وصل بنا الحال إلى هذا الوضع ؟

في مختتم القرن الثامن عشر ومع مطلع القرن التاسع عشر الميلادى ، كان عصر النهضة في أوربا قد أتى ثماره في كل قطاعات الحياة العلمية والتطبيقية والاقتصادية . وكان من أثر ذلك تعاظم نفوذ كثير من الدول الغربية وانتشارها في الآفاق ، وتطلعها إلى بسط نفوذها عن طريق الغزو الحربى والتوسع الاستعمارى . وبمقدار ما كانت الدول الغربية آخذة في

التقدم والصعود ، كانت الدول الإسلامية ، وفى مقدمتها الدولة العثمانية آخذة في التدهور والانحلال ، وكان اكتشاف قوى البخار والكهرباء واللاسلكى في القرن ١٩ ذا أثر كبير في توسيع المسافة بين قوة الغرب ، وضعف البلاد الإسلامية . (١٧).

وأمام هذا الشعور بالخطر ، بدأ الإحساس بضرورة تعزيز الجيوش في البلاد الإسلامية ، خاصة وقد كثر تساقط الكثير منها تحت السيطرة الاستعمارية ، وتطلع المسلمون إلى الأخذ بالأساليب الغربية في تنظيم الجيوش وتسليحها ، ولكنهم حين تطلعوا إلى ذلك وجدوا أن هذا الهدف الحربى لابد أن تصاحبه نهضة علمية . أدركوا أن الغرب سبقهم بأماد بعيدة ، وأن الأمر ليس بالسهولة التى يتصورونها ، فقد كانت الجيوش الغربية الحديثة تعتمد على خبرات علمية في الهندسة ، وفي العلوم الطبيعية والكيميائية ، وكانت ترعاها خبرات طبية وبيطرية ، وكانت هذه الخبرات جميعا تحتاج إلى إعداد طويل في نماذج من مدارس تختلف عن النماذج التى انتهى إليها التعليم في البلاد الإسلامية ، حين أصبح مقصوراً على العلوم الشرعية وما تحتاج إليه مما كان معروفا بعلوم الوسائل ، أى : أن العلوم الأخرى لم تكن تدرس إلا لكى تكون وسيلة لمعرفة وفهم العلوم الشرعية وتطبيقها ، عند ذلك تطلع المسلمون إلى نقل العلوم الغربية – أو التى تفوق فيها الغرب – لتحقيق هذا الهدف الحربى ، وهم تحت وطأة الشعور بخطر وضعهم الحربى الضعيف . واتخذ هذا النقل طريقين : أرسلت بعثات إلى البلاد الأوربية في بعض الأحيان ، واستقدم أساتذة وخبراء غربيون في أحيان أخرى للتدريس في المعاهد العلمية على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، وللتخطيط للنهضة الحربية المأمولة. (١٨)

إلى هذا المدى ، وفي هذه الحدود، ولهذا الهدف السليم ، لم يكن هناك مجال لتعارض بين الإصلاح وبين الإسلام ، لأن الأمر كان بعيدا عن

أن يمس نظمه وقيمه . ولكن الأمور لم تسر على ما أريد لها أن تكون . فمع النظم الحربية الجديدة ، تسربت نظريات سياسية وعناصر حضارية وثقافية وثقافية غربية . فقد استلزمت ترجمة كثير من الكتب الأوربية في مختلف العلوم والفنون، واستلزمت استقدام خبراء ومدرسين من الأجانب ، كما استلزمت إرسال بعوث علمية إلى مختلف المعاهد الأوربية . ونتيجة لهذا ، ولجهود غربية عديدة ، أخذ النموذج الحضارى يلفح بنار سلبياته في أغلب الأحوال المجتمعات الإسلامية ، ونادرا ما يلقحها بايجابياته.

ولدى تعلم مثقفينا من الغرب ، وجدوا أن حضارته الحديثة تتكون من ثلاثة عناصر أساسية :

أ- في مجال الطبيعة تقوم على العلم التجريبى والبحث المستمر لأجل تكييف الطبيعة والتغلب على مصاعبها . وقد أدى اتباع المنهج التجريبى في التعامل مع الطبيعة إلى إنجازات عظمى يسرت الحياة للإنسان ، وكشفت له كنوز الطبيعة وعلمته أساليب الانتفاع منها وأفضل الوسائل لاستغلالها.(٢٠)

ب- وفي مجال المجتمع تقوم الحضارة الحديثة على التنظيم الدقيق الصارم للنشاطات، والإنتاج ، والزمن - العمل ، وذلك لأن نمو حياة المدن ونشوء المدن الكبرى ، وكثرة المواصلات ، وانتشار الصناعة .. كل ذلك وغيره من إنجازات وآثار العلم التجريبى في مجال الطبيعة جعل التنظيم ضرورة حياتية يومية (٢١)

جـ- وفي مجال العلاقات الإنسانية بين الأفراد بوجه عام ، وبين الذكر والأنثى بوجه خاص ، كذلك في العمل السياسى ، كذلك في العلاقات الدولية - وباختصار : في جميع مجالات العلاقات الإنسانية التى لا تدخل في دورة العمل والإنتاج والإستهلاك في داخل المجتمع - في هذه المجالات من

العلاقات الإنسانية تقوم الحضارة الحديثة على مبدأ المنفعة من جهة وعلى مبدأ ذاتية القيم من جهة ثالثة . (٢٢)

لقد صحح العلم الغربى الحديث وضعه حين تخلص من صيغ التفسير المقدسة ذات المنشأ الدينى التى كانت تغل قوى وإمكانات الانطلاق فيه . لقد غدا العلم صادقا حين غدا ماديا وتخلص من أغلاله . ولكنه في بداية الأمر ، غلا في ماديته حين تجاوز في دعواه حدود مجال عمله وهو الطبيعة المادية في العالم ، هذه الطبيعة القابلة للتجربة والقياس ، تجاوزها إلى مجالات خارج نطاق الطبيعة المادية للعالم فجعل الإنسان – بما هو معتقد وعاطفة ومعنى – مجالا لنشاطه ، وقد مرت على العلم ، بعد عصر النهضة عهود طوح فيها بالعلماء غرور أجوف خيل إليهم أنهم قادرون على تفسير كل شئ ومعرفة كل شئ ورتبوا على ذلك مادية الإنسان وحيوانيته ، وجهدت فلسفة العلم في أن توجد الأساس النظرى لهذه الدعوى المتطرفة. (٢٣)

ولم تنفك هذه الفلسفة عن إعلاء شأن الإدراك الحسى والمنهج التجريبى في جميع حقول المعرفة في الطبيعة ، كذلك في الإنسان من حيث هو معنى ، والمجتمع الإنسانى من حيث هو ظاهرة متحركة لجملة من المعانى . فغدا ما يسمى علم النفس ، بجميع فروعه ، وعلم التربية ، وكذلك علم الاجتماع بجميع فروعه ، متأثرين بمنهج في المعرفة يقوم على الإدراك الحسى المباشر أو غير المباشر، وعمليات الإحصاء والتجربة الميدانية والمعملية (٢٤)

وقد أدت هذه النزعة المادية في الفلسفة وفي العلوم الإنسانية عامة والتربوية خاصة إلى أوخم العواقب بالنسبة للإنسان والحضارة . ولنسمع عن هذه العواقب من واحد من أبناء هذه الحضارة ، جارودى ، قبل أن يسلم

- استندت على الإرادة الفردية الغازية المريدة للربح والسيطرة ، والتى لا تتردد لحظة واحدة في تدمير القارات والحضارات ، من خلال توجيه العلوم والتقنيات.

- اعتمدت النظرة العلمانية الصرفة التى تؤكد أن العقل يحل كل المشاكل ، وأن كل المشاكل الأخرى ، هى مشاكل لاهوتية مزيفة .

- إن هذه الحضارة ، لم تستطع إلى الآن أن تحدد غايات الإنسان الحقيقية ، ولا أن تسيطر على الوسائل التى توصله إلى تلك الغايات .

- إذن فهذه الحضارة تحيل الإنسان إلى العمل والاستهلاك ، وتحيل الفكر إلى ذكاء آلى ، فيتجرد من الإيمان والحب والشعور الفنى ، وتحيل اللانهائي إلى الكم ، ولذلك فإن هذه الحضارة في رأي جارودى مؤهلة للانتحار.

- إن تقدم الغرب ، لم يكن نتيجة عظمة مبادئه ، وإنما كان بالضرورة وليد نهب قارات ثلاث ، ونقلها إلى أوربا وأمريكا الشمالية ، وبالمقابل فإن الغرب هو الذى جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفا .. ويثبت جارودى ذلك من خلال عرض تاريخى قائم على أساس إحصاءات دقيقة .

- إن هذه الحضارة أدخلت الرق طرازا إنتاجيا لأول مرة في تاريخ إفريقيا.

- وهى أبادت الهنود الحمر في أمريكا ، وأدخلت الأمراض الجنسية كالزهرى لأول مرة بين الباقين.

- ولما قضوا على الهنود الحمر احتاجوا إلى الأيدى العاملة ، فبدأ خطف السكان الأصليين في إفريقيا طوال ثلاثة قرون ، واسترقاقهم ودفنهم في العمل بالمناجم الأمريكية في مأساة إنسانية تاريخية كبرى قضى فيها

تسعون مليون من المختطفين الإفريقيين نحبهم ووصل عشرة ملايين تحت ظروف قاسية إلى مواقع العمل في أمريكا .

- يقول جارودى أيضا ، (بل إننا لا نستطيع أن نقارنها بالمذابح التى أتاحت لجنكيزخان بناء أهرام من بضعة آلاف من الجماجم البشرية ، إن عمله عمل صانع يدوى إذا قسناه بالجريمة التاريخية الأعظم التى اقترفها الغرب).

- يثبت جارودى أن الحضارة الغربية لم تلغ الرق لأسباب إنسانية وإنما لأسباب اقتصادية ، يثبت ذلك من خلال استقراء كامل لطبيعة تطور المشروع الرأسمالى .

- ظهرت النظرة العرقية بأبشع ما تكون في ظل الحضارة ، بحيث تعالى الإنسان الأبيض ونظر إلى الشعوب المستعمرة نظرة فوقية استغلالية من خلال مقولات عنصرية بحتة.

- وبالنسبة للعالم الإسلامى ، ينتهى جارودى إلى أن الاستعمار الإنجليزي والأسباني والفرنسي نتيجة للدور الذى قاموا به في أرض الإسلام خلال أكثر من قرن زيفوا الحقائق ، وافتروا منهجا من أجل إساءة سمعة إسهام الحضارة العربية في الحضارة الإنسانية .

- وبجانب هذا لقد ارتكب الغرب مجازر تاريخية رهيبة في البلاد الإسلامية ، ويعرض جارودى وثائق وإحصاءات تاريخية تثبت فظاعة ووحشية وبربرية الغرب في العالم الإسلامى ، لاسيما في شمالى إفرقيا.

- وينتهى جارودى إلى أن نمط التطور الذى تمارسه المجتمعات الصناعية يقود البشرية إلى درب مسدود . (٢٥)

إن قضية اللحاق بالغرب أمل يداعب رجال السياسة والعلوم

الإجتماعية في بلادنا، ومن خلال هؤلاء وأولئك ، يتسرب الأمل وينتشر في أرجاء المجتمع كلها ، وكثيرا ما يكون الترويج لهذا الأمل مشفوعا بالنية الحسنة ، ولكن ينبغى أن نفحص بعناية هذا الأمل ، لأن قضية اللحاق بالغرب (بمفهومها السائد) ليست إلا سرابا محضا. فقضية اللحاق بالغرب تختزل أحيانا إلى المستوى الاقتصادى مقيسا بمتوسط الدخل وما أشبه من مؤشرات ، ويعبر عن هذا أحيانا بسد الفجوة بين متوسط الدخل في الدول الصناعية المتقدمة وبين المتوسط المقابل في الدول (النامية) . وسد الفجوة هذا هو (الجزرة) التى سيجرى الحمار طول عمره دون أن يلحقها أبدا . بعض الاقتصاديين في الدول (النامية) يقول ذلك ، وفي الدراسات المستقبلية الغربية المختلفة يستبعدون تحقق هذا الهدف في أى أفق زمنى منظور ، وهم يصلون إلى هذه النتيجة وفق حساب معدلات النمو في هاتين المجموعتين من الدول ، وهذا حساب صحيح ، ولكن أهم من ذلك في تفسير عدم اللحاق أن نظريات التنمية المصدرة إلينا مصممة في إطار المسلمات التى تحكم النظريات الأم ، وضمن ذلك استمرار السيطرة الغربية علينا ، أى أنها مصممة عمدا على نحو لا يمكننا من إحداث تغيير جذرى في بنية النظام الدولى ، وبالتالى على نحو لا يمكننا من اللحاق بالغرب أبدا . وأهم من ذلك أيضا وأعمق أن نتساءل هل لهدف اللحاق بالغرب (بالمفهوم السائد) أي معنى أصلا ؟ نحن متخلفون عن الغرب من حيث القدرة الاقتصادية بلا جدال ، ولكن هذا التخلف لا يقاس في المقام الأول بمعايير الإنتاجية أو معدلات استخدام الطاقة . إلخ وانعكاس ذلك في متوسط الاستهلاك ، فكل هذه مؤشرات شكلية أو خارجية .(٢٦)

إن قتل ملكة الإبداع ، وتربية بعض فئاتنا على استخدام المنتج النهائى الجاهز ، وعلى هيئة سلع استهلاكية أو نظريات اجتماعية ، يؤدى

إلى خلق (قطاعات حديثة) تشبه أهل الغرب في نمط استهلاكهم وأسلوب حياتهم وقيمهم ، وأبناء هذه القطاعات يتبعون الغرب من حيث ارتباطهم بكل ما يستحدثه في هذه المجالات ، وهذه التبعية تحقق لهم امتيازات مادية أعلى ، وتدعم مواقعهم في السلطة . ولكن ، هل يمكن أن تتحول هذه القطاعات – مع بقاء كل شئ على حاله – إلى بؤر تقود تقدما أصيلا قابلا للانتشار المنتظم (كما حدث في التجارب الغبرية مثلا) ؟ الإجابة لا عريضة ، ولأسباب عديدة ، نكتفى منها (خاصة ونحن بصد التركيز على المستوى النظرى) بحقيقة أن هذا القطاع الحديث مصمم بحيث يكون عقيما (لا ينجب) مصمم بحيث يشبه أهل الغرب في كل شئ إلا في الجوهر ، أى في القدرة على الإبداع(٢٧)

تغريب التعليم الإسلامى :

وكان من الطبيعى لهذا التوجه الغربى العام لسلب الهوية الإسلامية للعالم الإسلامى وعلمنة فكره وثقافته بعد تهيئة المسرح الإجتماعى والسياسى عن طريق الاحتلال والسيطرة والهيمنة ، أن يكون التعليم كذلك ساحة رئيسية لمسخ الشخصية الإسلامية ، وبدلا من ذلك إعادة تشكيل العقل المسلم كى يفكر ويتعلم بالطريقة الغربية لا من موقف الند المشارك ، ولكن من موقف (المستهلك) التابع .

وإذا كنا قد بينا أن (أصول التربية) إنما تعنى بالدرجة الأولى بانعكاسات النظم المجتمعية على التعليم ، فإن هذا الذى أظهرناه في الصفحات الماضية ، إنما هو بيان في الآن نفسه لعملية علمنة (أصول) التربية وتغريبها . وما سنبينه فيما يأتي إنما هو شواهد وبراهين للنتائج العملية في قطاع التربية والتعليم .

فلا يخفى على المطلع الخبير أن لنظام التعليم روحا وضميرا كالكائن الحى ، وروح نظام التعليم وضميره هو ظل لعقائد واضعيه وغايتهم من دراسة العلم ودراسة الكون ، ووجهة النظر إلى الحياة ومظهر لأخلاقهم ، وذلك ما يمنح نظام التعليم شخصية مستقلة وروحا وضميرا بذاتهما ، إن هذه الروح هى التى تسرى في هيكله تماما ، إنها تسرى في جميع العلوم ، في الأدب والفلسفة والتاريخ والفنون والعلوم العمرانية ، حتى في علمى الاقتصاد والسياسة ، ومن باب أولى في أصول التربية ، بحيث يصعب تجريدها من هذه الروح . وليس في وسع كل شخص أن يميز بين الصحيح والسقيم منها وإنما يتيسر ذلك لرجل أوتى من قوة الاجتهاد ومهارة النقد القوية ما يستطيع به أن يميز النافع والضار ، فيكون عاملا بمبدأ " خذ ما صفا ودع ما كدر "، ويفرق بين الأصل والزائد حتى يتمكن من أخذ جوهرها وروحها. (٢٨)

وهذا العمل سهل في العلوم الطبيعية والتطبيقية ، بينما هو صعب ودقيق في نفس الوقت في العلوم الإنسانية والاجتماعية وأصول التربية ، ولا سيما إذا كانت أمة تؤمن بعقائد معينة وتتبنى فلسفة مستقلة وأسلوبا خاصا للحياة ، وتاريخا مستقلا . إذا كانت أمة هذه صفتها تتبنى نظام تعليم لأمة وفلسفة تربيتها ، تختلف في الأساس والقيمة والمعيار ، يحدث هناك صراع مستمر لا يفارق هذه الأمة في أى مرحلة من مراحل حياتها ، يجر إلى بناء واحد وهدم آخر ، إلى تصديق واحد وتكذيب آخر ، إلى إجلال واحد وازدراء آخر . وفي مثل هذه الحال يحدث نزاع عقلى وتزعزع في العقيدة وانحراف عن الدين ، وأخيرا قبول القيم والأفكار الحديثة مكان القيم والأفكار السابقة ، وذلك أمر طبيعى يجب أن يحدث كأمور طبيعية، لا يحول دون حدوثه حسن النية أو القلق ، ورغبة الآباء والجدود والاحتياطات .

الفرعية والخارجية ، وإنما يمكن تأجيل موعده أو إبطاء سيره على أكثر تقدير ، دون تعويقه أو القضاء عليه (٢٩)

ولعل من أوفي ما كتب في هذا الشأن ، ما كتبه كاتب من أهل الغرب أنفسهم ، إذ يقول لقد بسطنا في الفصول الماضية بعض الأسباب المؤيدة للرأى القائل بأن الإسلام والمدنية الغربية – وهما يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماما – لايمكن أن يتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك ، فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوربية وعلى مقتضياتها، خالصة من شوائب النفوذ المعادى للإسلام ؟

ليس ثمة ما يبرر توقعنا لذلك، وإننا إذا استثنينا بعض الأحوال النادرة التى يتاح فيها لعقل نير للغاية أن يتغلب على مادة التعليم ، فإن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستقضى حتما إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أو ينظروا إلى أنفسهم هم ممثلوا الحضارة الإلهية الخاصة التى جاء بها الإسلام ، وليس ثمة من ريب في أن العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين " المتنورين " الذين نشأوا على أسس غربية (٣٠)

واستطاع النفوذ الإنجليزى في مصر أن يساعد ويدعم حدوث صدع في ثقافة الأمة صدعا متفاقما أخبث وأعتى من الصدع الذى أحدثه الفرنسيون بحملتهم ومشورتهم لمحمد على . ووضع (دنلوب) أسس " التفريغ الكامل لطلبة المدارس المصرية ، أي تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفق في دمائها مرتبطا بالعربية والأسلام ، ومهد لملئه بماض آخر بائد في القدم والغموض ، لم يبق من ثقافته شئ البتة ، ليزاحم هذا الماضى الفارغ بقايا الماضى المتدفق الحى الذى يوشك أن يتمزق ويختنق بالتفريغ المتواصل ، ويجعل أجيال طلبة المدارس في حيرة مدمرة بين انتماءين ،

بين الإنتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية الواضحة في كتب أسلافهم ، وبين الانتماء إلى الفرعونية التى بادت وبادت ثقافتها ولم يبق منهاإلا أطلال من الحجارة ، مهما بلغت في العظمة والجلال ، فهى فارغة من ثقافة حية تتدفق في القلوب والعقول والألسنة(٣١)

وأيضا فإن هذا " التفريغ" سوف ينشئ أجيالا من " تلاميذ المدارس" تنتهك علاقتها التى تربطها بثقافتها العربية الإسلامية اجتماعيا وثقافيا ولغويا ، حتى يتم تفريغها تفريغا كاملا من ماضيهم كله ، ثم يملأ هذا الفراغ علوم وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم ، وإنما هى علوم الغزاة ، وفنون الغزاة ، وآداب الغزاة ، وتاريخ الغزاة ، ولغات الغزاة . ومع كل ذلك ، فإن هذا لقدر من العلوم والفنون والآداب إنما هى قشور ومقتطفات ، توهم النفوس الظامئة المفرغة بأنها نالت شيئا يذكر ، والحقيقة أنها نالت غذاء تعيش به موتى في صورة أحياء لا غير (٣٢).

فماذا عن الأزهر وهو يحكم وظيفته ومحتوى التعليم فيه يقدم الزاد الثقافى العربى الإسلامى ؟

إن الموقف الذى استخذته القوى الإستعمارية في مصر من هذه القضية تلخصه تلك الكلمات التى نقرأها للورد لويد المندوب السامى في مصر في كتابه الصادر عام ١٩٣٣ : إن التعليم الوطنى عندما قدم الإنجليز إلى مصر ، كان في قضية الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين ، والتى كانت أساليبها الجافة القديمة تقف حاجزا في طريق أي إصلاح تعليمى ، وكان الطلبة الذين يتخرجون في هذه الجامعة يحملون معهم قدرا عظيما من غرور التعصب الدينى ، ولا يصيبون إلا قدرا ضئيلا جدا من مرونة التفكير والتقدير . فلو أمكن تطوير الأزهر- عن طريق حركة تنبعث من داخله هو - لكانت هذه خطوة جليلة الخطر ، فليس من اليسير أن

نتصور أي تقدم طالما ظل الأزهر متمسكا بأساليبه الجامدة (٣٣) ولكن إذا بد أن مثل هذا الأمل غير متيسر تحقيقه ، فحينئذ يصبح الأمل محصورا في إصلاح التعليم اللادينى الذى ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح

وعند ذلك فسوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين ، فإما أن يتطور ، وإما أن يموت ويختفى. على أن الخطة الأولى – والتى تقوم على إصلاح الأزهر من داخله – لها نتيجة عظمية الغائدة والأهمية ، وإن تكن نتيجة غير مباشرة ، وهى أنها تؤدى بالتدريج الى اختفاء التعصب الدينى الذى أخر تقدم مصر – بحسب زعمه – زمنا طويلا . أما الخطة الثانية – وهى إصلاح التعليم اللادينى – فإن تأثيرها المباشر أقوى ، فى إيجاد ما نحن في أشد الحاجة إليه من إقامة العلائق الإنجليزية المصرية على أساس من التفاهم والتعاطف المتبادل (٣٤)

ولقد زرع الاستعمار في كل بلد مئات المدارس التبشرية التى تأخذ الطفل منذ نعومة أظفاره ، عجينة لينة طيعة فتصوغه كما تريد وتنشئه كما تهوى ، وتبعده عن الإسلام بقدرما تقربه من النصرانية ، وتحببه في حضارة الغرب بقدر ما تبغضه في حضارة الشرق ، وقد صرحت المبشرة (آنا ميلجان) عن هدف هذه المدارس ومهمتها في بلاد العرب والمسلمين فقالت إن المدارس أقوى قوة لتجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحى حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما ما قادة أوطانهم " وتقول أيضا عن كلية البنات الخاصة بالقاهرة " في كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات " وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحى ، وليس ثمة طريق الى دحض الإسلام أقصر من هذه المدرسة.(٣٥)

ولم تقف جهود التبشير عند المدارس الثانوية والإبتدائية ورياض الأطفال ، بل خطوا خطوة أخرى نحو إنشاء الكليات والجامعات والمعاهد العالية لتوجيه قادة المستقبل كما يشتهون ويحبون . وقد عرف الشرق الإسلامى عدة مؤسسات من هذا النوع ، ومن أشهر المؤسسات التعليمية جامعة القديس يوسف في لبنان ، وهى جامعة باباوية كاثوليكية ، وتعرف الآن بالجامعة اليسوعية ، والجامعة الأمريكية ببيروت التى كانت تسمى من قبل (الكلية السورية الإنجلية) ، ثم كلية بيروت التى أنشئت عام ١٩٦٥م ، وهي جامعة بروتستانتية ، والكلية الأمريكية بالقاهرة التى أصبحت فيما بعد (الجامعة الأمريكية) ، وكلية روبرت في استانبول التى أصبحت تسمى الجامعة الأمريكية، والكلية الفرنسية في لاهور ، باعتبار إن هذا البلد يكاد يكون البلد الإسلامى الخالص في تكوينه في شبه القارة الهندية (٣٦).

وشكلت مدرسة المعلمين العليا في بلد مثل مصر (مشتلا) للأفكار التربوية الوافدة من الدولة المحتلة لمصر وهى بريطانيا ، محاولة منافسة الثقافية الفرنسية التى كانت قد مكنت لنفسها من خلال أول مدرسة لاعداد المعلمين حيث أنشئت عام ١٨٨٠ .

لكن ظهور معهد التربية العالى للمعلمين عام ١٩٢٩م نتيجة رأى خبير إنجليزى في التعليم هو (المستر مان) كان إيذانا بإشراق مؤثر جديد لا يجئ من القارة الأوربية وما وراء البحر المتوسط ، وإنما من أمريكا الشمالية ، عبر المحيط الأطلسى ، صحيح أن نشأة المعهد كما نرى (إنجليزية) ، لكن قوة الولايات المتحدة التى بدأت تتنامى بعد الحرب العالمية الثانية ، حاصرت التأثير الإنجليزى ، وانفتح الباب على مصراعيه للتربية الأمريكية .

وحظى جون ديوى ، فيلسوف التربية الأمريكية الأول بنصيب الأسد في الكتب التى ترجمت له والتى شكلت غذاء تغذى عليه الفكر التربوى العربى الحديث ، إذ ترجمت كتبه : (الديموقراطية والتربية) ، و(الخبرة والتربية) و (المدرسة والمجتمع) و (الطبيعة الإنسانية والسوك الإنسانى) ،(البحث عن اليقين) و(تجديد في الفلسفة) و(المنطق نظرية البحث) و(الفن خبرة) و(الحرية والثقافة) و (التربية في العالم الحديث)، فضلا عن ترجمات لبعض تلاميذه مثل (كلباتريك) في (المدنية المتغيرة والتبرية) و كارلتون واشبورن في (التربية التقدمية)، ثم المؤسس الثانى للفلسفة البراجماتية بعد مؤسسها الأول (بيرس) ، عالم النفس الإمركى وليم جيمس الذى ترجم له (أحاديث إلى المعلمين) ، (إرادة الإعتقاد) ، (البراجماتية).(٣٧)

ومن هنا بدأنا نلمس في كتب أصول التربية الصادرة في الخمسينات والستينات على وجه التقريب إغفالا واضحا للفكر التربوى الإسلامى ، ففى مثل هذه الكتب نجد ، على سبيل المثال موضوعا مثل (الطبيعة الإنسانية) ، تعالج فيه ومن خلاله آراء لأفلاطون وأرسطو وتوماس هوبز وجون لوك وجان جاك روسو وجون ديوى ، وتفتش عن رأي مفكر عربى مسلم بين هؤلاء فلا تجد ، فما تأثير هذا على طلاب ودارسى وقارئى التربية في بلداننا ؟ وخاصة من نعدهم ليربوا لنا أجيالنا الناشئة ؟ إنهم من غير شك سيعتقدون أن هناك فقرا فكريا وجدبا فلسفيا إلى الدرجة التى لا يجدون فيها رأيا لأحد في مثل هذه الموضوعات (٣٨)

لقد ذهب لوك إلى القول بأن العقل صفحة بيضاء تنقش عليه المعارف والعلوم بعد ذلك ، لماذا لا نعرض بجانب هذا الرأي ما ذهب إليه إخوان الصفا من كلام يكاد يتطابق مع هذا الرأى ؟ والكندى وابن سينا والفارابى

وغيرهم من فلاسفة الإسلام ، كانوا يشايعون تلك القسمة الثنائية للطبيعة الإنسانية للطبيعة الإنسانية من حيث تكوينها من جسم وروح أو جسد وعقل ، فلماذا الاكتفاء بذكر آراء أفلاطون وأرسطو في هذا الشأن ولا تشير هذه الكتب إلى مفكرينا وفلاسفتنا ؟

وهل يجوز إغفال ما جاء بالقرآن الكريم خاصا بقضية التفكير وفيه ثروة تكفى لتجعل من هذه القضية موضوعا لكتاب بمفرده وهو ما فعله عباس محمود العقاد ، (٣٩)، هذا فضلا عن قضية (الطبيعة الإنسانية) ؟

ولم يقتصر الأمر على الاغتراب عن (أصول) الأمة الفكرية وانما يمتد ليشمل اغتراب فكرنا التربوى عن (واقع) أمتنا ، وهى نتيجة طبيعية لموقف (الذيلية) و (التبعية) ، حيث تحتل بؤرة الاهتمام لذى الباحثين والكتاب ، بؤر الاهتمام والتفكير لدى منتجى الفكر التربوى في العالم الغربى ما دام ينظر إليهم على أنهم هم وحدهم نماذج التقدم والرقى .

وككل فلسفة وككل تربية تنقل من تربتها الثقافية ومنبتها الاجتماعي إلى تربة أخرى مغايرة دون تكييف وتحوير وتغيير ، تعرضت التربية في بلداننا لكثير من أوجه الخطأ والانحراف في التطبيق أصابا التربية والتعليم بأضرار ما زلنا حتى الأن نعانى منها ، أما أوجه الإنحراف والخطأ فيمكن الإشارة اليها من خلال عدد من الأمثلة : (٤٠)

- فغرض التلميذ وميله أخذا على أنهما غرضه وميه الحاليان ، يقف الأمر عندهما وينتهى إلى إشباعهما دون محاولة استخدامهما في خلق ميول جديدة وأغراض حيوية ، تتسع وتعمق حتى تصل إلى الأغراض الاجتماعية والميول المتعلقة بمصالح الجماعة .

- ونشاط التلميذ أخذ على أنه النشاط الحركى فقط وأخذ على أنه

غاية في ذاته لا وسيلة لاكتساب معارف وميول ومهارات جديدة ، وأصبح معيار الطريقة التربوية ، أن ترى التلاميذ ينشطون ويجرون ويتحركون ، وقل التوجيه لهذا النشاط ، فيكفى ، مثلا ، أن يرى المعلم تلاميذه سعداء يجرون وراء الفراشات يصطادونها دون توجيه لهذا النشاط وتفسيره تفسيرا اجتماعيا

– وانتاج التلاميذ أخذ على أنه غاية في حد ذاته ، تقام له المعارض ، فتوخوا فيه الإتقان ونسوا أن المهم هو العملية التى يجتازها التلميذ وهو يقوم بهذا الإنتاج ، وعلى هذا أهملت المهارات الاجتماعية في سبيل الإسراع بالإنتاج وعرضه .

- وأخذت العناية بالتلميذ ونموه واحترام شخصيته علي أنهما تدليل له وترك الحبل على الغارب لنزواته وعدم التعرض لها برد أو زجر أو تنظيم ، وبذلك أهملت قيم الجماعة ومقتضيات المعيشة فيها ، فأهمل التوجيه الاجتماعى لعملية التربية .

ولأن فلسفة التربية التى هى العمود الفقرى في دراسات أصول التربية أصبحت بهذه الصورة المتغربة المعلمنة ، كان لابد أن ينعكس وضعها علي مناهج التعليم من حيث أن هذه المناهج (الصورة التنفيذية) لفلسفة التربية القائمة وأصولها .

لقد ترسمت مناهج تعليمنا خطى المنهج الأوربى الذى به مخالفات جوهرية مع مناهج التعليم الإسلامى في فلسفتها وأصولها .

وأول هذه المخالفات أنه - أى الأوربى – منهج انفصالى ، أي يقوم على مبدأ الفصل التام بين الدين والحياة ، حيث يقرر أن التعليم أمر مستقل عن الدين تمام الاستقلال ، وأن تعليم أمور الحياة لا علاقة له بالدين

لأن الدين بحسب نظرته إلى الدين ، هو الذى يعتمد على الأمور الغيبية والقضايا الروحية وأن مسائله كلها تناقض مسائل العلم ولا تعترف بها، وبناء على ذلك تقرر هذا الانفصال ، وتقرر بالتالى أن الدين ليس له دور ولا مكانة في التأثير في الحياة أو تحريك الحياة أو توجيهها . القيادة اليوم بزعمهم للعلم فهو المحرك ، وهو الموجه (٤١).

وعزز هذا الواقع الانفصالى ، ثنائية أخرى بين تعليم (مدنى) يختص بالأمور التى تقوم بها الحياة الدنيوية وتعليم (دينى) يختص بتعليم الأمور التى تقوم عليها الحياة الأخروية ، والمعارف الموصلة اليه من علوم شرعية

وهكذا أصبح تغيير الوضع القائم بالنسبة لدراسات أصول التربية واجبا على كل المشتغلين بها ممن يؤمنون بالمنهج الإسلامى منهجا شاملا للحياة ، حتى تستلهم أصول الإسلام في رسم أهداف العملية التربوية ، وفي إرساء دعائم فلسفة التربية .

٣ - مقومات التوجيه الإسلامى لأصول التربية

مسئولية علماء التربية الأصوليين. :

إن الوضع الراهن الذى تواجهه الأمة الإسلامية وضع جد خطير وإن لم يكن بجديد عليها ، فلقد واجهته الأمة من قبل ، فليست هى المرة الأولى التى تقف فيها أمام التحدى وجها لوجه، ذلك التحدى الذى بلغ من العمر أكثر من ألف عام ، فمنذ بزوغ فجر الإسلام خرج المسلمون الأوائل من الجزيرة العربية لا يحملون معهم من مقومات الحضارة شيئا اللهم إلا الإسلام ، لقد كانوا عزلا حتى من الحد الأدنى من العلوم الطبيعية ، ومن الفنون والحرف ، وكذلك من الصناعة ، وكانت الأمم من حولهم في قمة ازدهارها وحضارتها(٤٢) .

واجه أجدادنا عملاقين عظيمين ، الأمبراطورية الرومانية : التى قامت على ما ورثته من آثار العصور القديمة بثقافتها وحضارتها ، والفرس في الشرق وقد ورثوا بدورهم حضارة عظيمة أساسها علوم الهند وحكمتها . كلا الإمبراطوريتين قد حققتا ازدهارا ورخاء اقتصاديا وثقافيا عبر آلاف السنين ، وما ان بدأ المسلمون الأوائل سيرتهم وظهروا على مسرح التاريخ حتي تصدى لهم هذان العملاقان الفارسى في الشرق والرومانى في الشمال والغرب .

لقد كان عند هؤلاء المسلمين الأوائل من الأسباب ما يجعلهم يثبتون في هذه المواجهة ولا يصابون بالهلع والذعر فقد كان إيمانهم مطلقا وثابتا بأنهم وحدهم الذين يجب أن يؤول الأمر في نهاية المطاف إليهم ، وأنهم جديرون بأن يسودوا العالم بأسره بهذا الدين الجديد . لقد كان هذا الإيمان فيهم هو الفرق بيننا وبينهم . (٤٣)

ونحن نكاد نواجه اليوم موقفا مشابها ونحن نواجه اليوم خطرا حضاريا لم يعد منقسما إلى عالم ماركسى وعالم رأسمالى ، فقد تقاربت الكتلتان* ، مع تعاون وثيق مع الخطر الصهيونى ، ولن يتأتى لنا حسن المواجهة إلا بالتسلح بما تسلح به أوائل المسلمون : إيمان يقر في القلب ويصدقه العمل ، ينعكس في دراساتنا التربوية عامة والأصولية خاصة باعتبار علاقتها الوثيقة (بالإيديولوجية) و (العقيدة) الحاكمة الموجهة .

إن العلماء التربويين الأصوليين المسلمين المهتمين بتربية الأمة المسلمة تقع على عاتقهم مسؤلية كبيرة ، على كل من المستوى النظرى والعملى ، وعندما ندرس تاريخ حياة العلماء الإسلاميين التربويين المبكرين مثل الفارابى والغزالى وابن سحنون والزرنوجى وابن جماعة وابن خلدون

---

* تمت الدراسة قبل انهيار الاتحاد السوفيتى .

وغيرهم نجد أنهم كانوا أشخاصا ذوى همة عالية للغاية ، فقد كان يتملكهم حب الاستطلاع الحماسى ، وكانت لديهم طاقة وافرة وحماس للحصول على المعرفة التربوية ، سواء من الحقيقة الموحى بها ، أو الحقيقة المتمثلة في الخليقة (العالم المرئى) . إن النقطة الهامة التى يجب أن نلاحظها هى أن همتهم العالية تنبع من إيمانهم ، فقد كانوا يؤمنون يقينا بالنصيحة القرآنية، وهى التفكر في آيات الله المتمثلة في العالم الخارجى وفي الإنسان ، والمنهج الإسلامى الذى يتمثل في مقولة (اطلبوا العلم ولو في الصين) . وهم لم ترهق أذهانهم بألغاز ما وراء الطبيعة والعبارات السكولاستية لأنهم كانوا يحوزون على المعرفة الضرورية والكافية بالنسبة للغيب ، وقد مكنتهم العقيدة والممارسة الإسلامية بطريقها الواضح البسيط من التحرر من الأوهام والكهانة ، والخرافات واللاشعور بالذنب. (٤٤)

ولأن علماء التربية المسلمين كانوا ينظرون إلى الكون كتجل لقدرة الله الإبداعية ، سلطانه وعنايته الإلهية ، فقد كرس العلماء المسلمون أنفسهم للسعى وراء المعرفة بنشاط فكرى ، لأنهم كانوا يعلمون أن ذلك يعد واحدا من أسمى أشكال العبادة : " إنما يخشى الله من عباده العلماء. (فاطر/٢٨) . لقد كان العلم التربوى الذى قدموه منسجما مع معتقداتهم ، وقد كان تطبيق ذلك العلم بأكمله يجرى لصالح الإنسانية .

إن مما يجعل حالة التردى التى عليها المسلمون اليوم أمرا يعسر احتماله ، أن تعداد هذه الأمة الإسلامية قد تجاوز الألف مليون نسمة ، وأنها تملك أوسع الأراضى وأغناها، وأن مواردها الكامنة سواد كانت بشرية أو مادية أو استراتيجية تفوق سواها ، وأن عقيدتها (الإسلام) دين متكامل صالح ، إيجابى ، واقعى (٤٥) .. وليس هناك شك في أن الداء هو في المسلمين أنفسهم وأن العلاج ينبغى أن يأتى من داخل الأمة الإسلامية،

ولذا فان كل إجراء شكلى ظاهرى لا ينعدى الترقيع الذي لا يصل إلى لب القضية .

ولما كان البلاء قد عم المسلمين قادة وجندا ، فإن الإصلاح الحقيقى ينبغى أن يكون إصلاحا جذريا وشاملا ، يجلى حقيقة الإسلام للجميع ويثير فيهم إرادة التغيير ، وهنا تكمن المهمة المقدسة لعلماء أصول التربية ، فليس هناك إلا طريق واحد لإنقاذ الأمة الإسلامية إنقاذا حقيقيا وذلك بتربية الأمة من جديد وعلى أصول الإسلام .

إن الغربيين يتفوقون اليوم علينا بأشياء كثيرة وممارسات كثيرة ، ولا ريب أن من أبرز هذه الأشياء والممارسات، قدرتهم على الركض إلى الأهداف ، وتجاوز المشى أو الهرولة إليها. على اختزال حيثيات الزمان والمكان .. علي الحفظ على شدهم وتوترهم المعطاء حتى خط النهاية .. على المسارعة في الإنجاز والسبق إلي كل ما هو أكبر وأكثر غناء .. ولن يكون في مقدورنا أن نلاحقهم ونصل إلي مواقعهم ، بله أن نسبقهم ، ما لم نتحقق بالشرط نفسه .. إننا هنا لا نستعير تقليدا حضاريا من الغرباء ، ولكننا نرتد إلى أصولنا ، نرجع إلى كتابنا وسنتنا وتقاليد أجدادنا الرواد لكي نعرف كيف يكون السبق الحضارى .. والتحقق .. والإبداع . (٤٦)

ان الإنتماء إلى الإسلام يعنى – في نهاية التحليل – الموافقة المبدئية على الدخول في عمل مبرمج مرسوم .. والإيمان بالله يعنى التحقق بالقناعات الكافية بجدوى هذا العمل ، أما التقوى فهى تلك الطاقة الفذة التى تشعل مصباح الضمير فيظل متألقا متوهجا حتى يغيب الإنسان في التراب ما دام يشعر في كل عصب وجارحة وخلية إن الله يرقبه وهو يمارس هذا العمل أو ذاك ، ويجئ الإحسان لكى يضع الإنسان المسلم المؤمن المتقى في القمة ، في المصاف الأعلى حيث الإحسان .. الإبداع الكامل في كل مايقدمه الإنسان ، إنه ها هنا يقف أمام الله سبحانه ، وإن نداء كريما

من نبيه صلى الله عليه وسلم ينفخ فيه اللحظة تلو اللحظة أن الله يحب منه إذا عمل عملا أن يتقنه .

ومن خلال هذا المدرج المرسوم بعناية .. عبر هذا السلم ذى الدرجات العريضة يصعد المسلم راكضا إلى القمة ، ويتمكن بالعمل الجماعي المبرمج والاقتناع بحيثياته ، وبيقظة الضمير المتوهج ، والرغبة العميقة في الإتقان والإبداع ، من الوصول إلي الهدف المنشود : التحقق بالقيم الكبرى التي جاء بها هذا الدين والوفاق مع معطياتها ، رغم صعوبة هذا التحقق وغلاء ثمنه المبهظ ، ورغم البعد الشاسع الذى كان يفصل ولا يزال ، بين آفاق هذا الدين وبين المنتمين إليه. (٤٧)

حجية العقيدة الإسلامية كموجه لأصول التربية :

إن الباحث الذى يدرس طبيعة الإنسان والمجتمع لابد أن يدرك أن ليس بالضرورة أن تكون جميع الحقائق المتعلقة بالسلوك الإنسانى قابلة للملاحظة عن طريق الحواس ، ومن ثم خاضعة للقياس ، فإن الظاهرة الإنسانية لا تتكون من عناصر (طبيعية) على وجه القصد ، بل تتدخل فيها عناصر أخرى تنتمى إلى نظام مختلف ، أى النظام الأخلاقى الروحى ، وتقررها إلى درجة فائقة ، وتلك العناصر لا تعد بالضرورة بمثابة نتائج لازمة لعناصر الطبيعة أو قابلة للإنتاج من تلك العناصر ، وهى لا تتسم بالتماثل العالمى في الجماعات الإنسانية ، بل إنها تعتمد على التقليد والثقافة ، والدين، والأولويات الشخصية والجماعية التى ليس من الممكن أبدا اخضاعها للقياس ، الأسلوب الوحيد الذى يعرفه العلم ، وهو أسلوب كمى . ولقد نظر إليها العلم باعتبارها أشياء غير موجودة أو غير وثيقة الصلة ، ولقد فرض العلم تحليله للعناصر الطبيعية القابلة للملاحظة التى تتمثل في سلوك الإنسان ، وبإصراره على تفسير السلوك الإنساني ، فإنه قدم إلينا نظريات غير متقنة وتفسيرات مشوهة . ومن أجل أن يتسم ذلك

التحليل بالصفة العلمية ، فإن العالم الإجتماعى قد خفض العنصر الأخلاقى والروحى للحقيقة الإجتاعية إلى تأثيره أو أصله المادى . وإن المنهجية التى وضعها لا تزال إلى يومنا هذا خالية من الأدوات التى نستطيع بمقتضاها التعرف على الناحية الروحية والتعامل معها (٤٨).

لكن ماذا لو أن العلم الغربى نفسه قد بدأ يصل في سنواته الأخيرة إلى أن هذا العالم المرئي المادى القابل وحده للقياس ، ليس هو (كل) العالم ، فالعالم مثله مثل جبل الثلج لا يظهر لنا منه إلا جزء أقل بكثير من الجزء الآخر غير المرئى ؟

فإزاء النظرة العلمية مادية النزعة ، برزت إلى الوجود في مطلع القرن العشرين نظرة علمية منافسة كان من ألمع روادها آباء الفيزياء الحديثة كآينشتين وها يزنبرغ ، وبور وكثيرون غيرهم ممن استحدثوا مفاهيم جديدة كل الجدة أطاحت بالمفاهيم والنظريات الفيزيائية السابقة التي كانت رائجة منذ عصر أرسطو وحتي أواخر القرن التاسع عشر ، فقد أثبت أينشتاين ، مثلا ، نسبية الزمان والمكان ، بل الحركة. وبين الفيزيائي الدانمركى نيلز بور أن الذرة ليست أصغر جسيم يمكن تصوره ، كما كان نيوتن يظن ، بل إنها هى الأخري مكونة من نواة يحيط بها عدد لا حصر له من الالكترونات أو أجمعت آراء كبار علماء الفيزياء النووية و الكوزمولوجيا على أن الكون بمايحويه من ملايين المجرات ومليارات النجوم والكواكب قد بدأ في لحظة محددة من الزمن يرجع تاريخها إلى ما بين ١٠و ٢٠ مليار سنة ، فثبت بما لا يدع مجالا للشك أن المادة ليست أزلية ، وأن للنجوم آجالا محددة تولد وتموت كالآدميين ، وأن الكون المادى نفسه في تطور وتمدد مستمرين ، بل إن بين الفيزيائيين الفلكيين المعاصرين من قادته نتائج أبحاثه إلى القول أن الكون كان مهيئا منذ الانفجار العظيم لتطور مخلوقات عاقلة فيه ، وأن الإنسان في مركز الغاية من ابداعه ، فرأوا في ذلك كله في الجمال المنتشر

في الطبيعة على جميع المستويات هدفا وخطة مرسومة ، فآمنوا بعقل أزلى الوجود منتصب وراء هذا الكون واسع الأرجاء يدبره ويرعى شوونه (٤٩)

ثم أعقب هذا الجيل من الفيزيائيين جيل آخر من العلماء المتخصصين في مبحث الأعصاب وجراحة الدماغ من أمثال شرنغتون وأكلس وسبرى وبنفيلد وقفوا حياتهم كلها على دراسة جسم الإنسان فانتهت بهم أبحاثهم إلى الإقرار بأن الإدراك الحسى ، وإن كان يتوقف على عمليات فيزيائية وكيميائية ، ليس شيئا ماديا بحد ذاته ، وخلصوا كذلك إلى ما يفيد بأن العقل والدماغ شيئان مختلفان تمام الاختلاف ، وأن الإرادة والأفكار ليستا من صنع المادة ولا من إفرازاتها ، بل هي على العكس من ذلك ، تؤثر تأثيرا مباشرا في العمليات الفسيولوجية ذاتها ، وكانت النتيجة المنطقية لكل هذا ، الإقرار بأن الإنسان مكون من عنصرين جوهريين جسد فان وروح لا يعتريها الفناء (٥٠) .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية شعر كثير من عماء النفس إن اخضاع العقل للغريزة في طريقة التحليل النفسى وإلغاءه في المذهب السلوكى قد أفضيا إلى تجريد الإنسان من انسانيته . فالتحمت في الخمسينات من هذا القرن قوة ثالثة عرفت فيما بعد باسم (علم النفس الإنسانى) . ومن أبرز رواد هذه المدرسة فرانكل وماسلو وماى الذين يعترفون بأولية العقل ، وبعدم قابلية حصره في الخواص الكيميائية والفيزيائية للمادة ، ويكون الإنسان قوة واعية تملك حرية التصرف والاختيار ، ويرفضون من ثم تفسير السلوك البشرى كله بلغة الدوافع والغرائز والضرورات البيولوجية وردود الفعل الآلية ، ويؤمنون عوضا عن ذلك بما يسمى القيم الأخلاقية والجوانب الروحية والنفسية والفكرية (٥١).

وهكذا تجئ نتائج العلم نفسه كدليل إضافى يعزز يقيننا بضرورة أن

تتوجه علومنا التربوية بصفة عامة وأصول التربية بصفة خاصة بالعقيدة الإسلامية ، وعندما نقول بذلك ، فإنما نقول بالضرورة بأن يكون القرآن الكريم هو الأصل الأول والأساس عندما نضع للتربية أصولا ، فهو ، بالإضافة إلى أنه كتاب الله الذى يلتزم بالاهتداء به كل مسلم ، هو معين لا ينضب للتعليم والتوجيهات التربوية .

وقد حوى القرآن من منهج العلم ومن محتوى الثقافة والفكر وما يتصل بهما من أساليب النظر العقلى ما اضطر معه العرب إلى التبحر في كل صنوف المعرفة لفهمه وإدراك معانيه، فدرسوا اللغة والأدب وتبحروا في دراسة التاريخ والجغرافية ودرسوا كتب أهل الكتاب وغيرهم من أصحاب النحل والمذاهب ، واستعانوا بها في التفسير ودرسوا علوم الطبيعة لإدراك معنى الآيات الكونية الواردة في القرآن الكريم فتبحروا في الفلك والكيمياء والرياضيات والهندسة والطب وما اليها، ودرسوا الفلسفة والأخلاقيات للاقتراب مما ورد في القرآن من إشارات للظاهرة الإنسانية والظاهرة الاجتماعية وتفاعلهما مع مظاهر الكون المحيطة بهما ، وفي سنوات معدودة تغير مناخ جزيرة العرب الثقافى فأصبحت مهدا لحضارة بلغت في مدى قرن من الزمان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم قمة من قمم الإنجاز العقلى في كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية ، والذى لا جدال فيه أن القرآن كله دعوة للتعلم والتعليم وإعمال الفكر في مختلف المجالات (٥٢)

إننا حين نعلن ضرورة اعتبار الانبثاق الأصولى التربوى من القرآن مفسرا بالسنة ، نوجه الأنظار على الفور إلى الضمانات الحقيقية الموضوعية لتحقيق الأصالة وتثبيتها ، عن طريق استيعاب وسائل التربية الحضارية التى تضمنها هذا المصدر الجليل ، الذى يعد بحق خير مطلق للطاقات الإبداعية في الإنسان ، ومن التأملات السريعة في هذا

الشأن (٥٣)

- يربى القرآن فينا مهارة (النقد النزيه الموضوعى) لما يلقى إلينا من آراء وأفكار، مع الدقة والأمانة في نقل أو رواية أقوال الغير ، وضرورة التفرقة الحاسمة بين العلم والظن.

ولن يعجز القارئ تلمس الأمثلة الكثيرة لهذه الظاهرة في القرآن ، وعلى سبيل المثال : موقفه من عرض آراء المخالفين للعقيدة الإسلامية ، ثم التعقيب عليها في وفاء تام بالخلق العلمى الأصيل : تأمل مثلا هذه الآية التى تحكى رأى " الدهرية " ﴿وقالُوا ما هِيَ إلاَّ حَياتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ ونحيا وما يهلكُنا إلاَّ الدَّهرُ﴾"، كيف يعقب القرآن علي ذلك بقوله " مالهم بذلك من علم إن هم الإيظنون " الجاثية /٢٤ ، قارن الأنعام /٢٩.

- يربط القرآن دائما بين المعرفة أو الثقافة والنتائج لعلمية المترتبة عليها من حيث النفع أو الثقافة ، وتختلف مستويات النفع واضرر باختلاف الزوايا التى تتعلق بها هذه المعرفة أو الثقافة وبعبارة أخرى يرى الإسلام - ممتلا في القرآن والسنة - تكامل العلم والعمل ، وتبادلهما النمو والازدهار وإذا أدينا ذلك بأسلوب العصر ، قلنا إن المعرفة والممارسة تشكلان حصيلة الخبرة الضرورية لنموالحضارة والثقافة . (٥٤)

- يربى القرآن العقل والبصيرة على الكفاءة في رؤية الوحدة من خلال الكثرة ، وتلمس الرباط الموحد الذى ينظم ما يبدو متنافرا متباينا ، ونتيجة هذه التربية هى الأناة في الحكم على الأشياء من مظاهرها وعدم الاغترار بظواهر التدابر والانفصال ، بل عدم الاغترار بالظواهر عموما ، وضرورة الغوص لسبر الأغوار والبلوغ بالاستقصاء إلى المبلغ الذى تقف عنده الطاقة البشرية (٥٥).

وحسبنا أن نشير في هذه الملاحظة الثالثة إلى أن الروح الإسلامية المستوحاة من القرآن والسنة علمت الخلص من المتصدرين الثقافة وبناء البشر في العالم الإسلامى ، حقيقتين هامتين ، هما موضع اعتزاز كل مثقف وكل مرب نزيه :

أولاهما التمييز بين ضربين من الاتجاه الثقافى . الاتجاه الاستيعابى الأفقى المستعرض بغير الإحاطة والإلمام بخلاصة الحصيلة الثقافية والفكرية لجوانب الحضارة ، والاتجاه التخصصى المتعمق ، بغية الإجادة والإتقان لفرع أو آخر من فروع الثقافة .

والأخرى التطور الفكرى المستمر حقيقة يجب أن يعيها المسلم بصورة تليق بكرامته العقلية ، لا بالصورة التى تفتعلها بعض المذاهب السطحية . وتمثل الأديان في حد ذاتها حلقات متتابعة في هذا التطور حتى بلوغ الإنسانية رشدها بفضل الصيغة النهائية الخاتمة لهذه الأديان ، ممثلة في الإسلام (٥٦) .

ومن مفاخر المسلمين أنهم أدركوا أن العلم وحده لا يكفى ليكون سلاح المعلم وعرفوا أنه لابد من أن يضاف إلى العلم (فن التربية) ليتمكن المدرس من دراسة نفسية الطفل ، والنزول إلى مستواه ، والاتصال العاطفى به ليكون ذلك جسرا يوصل خلاله العلم إلى عقل التلميذ ، قال ابن عبدون والتعليم صناعة تحتاج إلى معرفة ودربة ولطف ، فإنه كالرياضة للمهرة الصعب، الذى يحتاج إلى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم (٥٧)

ولعل ما كتبه ابن خلدون في مقدمته من أمتع وأفصح ما كتب عن أهمية دراسة التربية و ذلك في فصل مخصوص عنوانه (فصل في أن

التعليم للعلم من جملة الصناعات)، جاء فيه : "ومما يدل على أن تعليم العلم صناعة ، اختلاف الاصطلاحات فيه ، فلكل إمام من الأئمة اصطلاح يختص به شأن الصناعات كلها ، فدل على أن الاصطلاح ليس من العلم وإلا ما كان واحدا عند جميعهم " ثم يقول " ومن أهم ما يلزم ف امعلم فتق اللسان بالمحاورة أو المناظرة ، والعمل على تحصيل الملكة لتى هى صناعة التعليم» (٥٨)

تصور إسلامى لتأصيل التربية :

إن الديانات العالمية والرأسمالية ، وحتى وقت قريب ، الشيوعية ، لم تنشأ وتتطور وتحقق انجازاتها دون أن يكون وراء ذلك فكرة وقضية تنفخ الروح في المؤمنين بها وتدفعهم إلى العمل، فأقل ما يجب أن يقال هنا إن على المسلمين أيضا أن تكون لهم قضية يؤمنون بها تكون حافزا لهم إذا أرادوا أن يتحولوا من متاثرين بالتاريخ إلى مؤثرين فيه . غير أن الإسلام ليس مجرد مذهب أو مبدأ يتساوى مع هذه المذاهب التى نتحدث عنها ، فهو لا يتقدم بدعواه على أساس أن ما لديه هو اعتقاد خاص به وتجربة شخصية تخص صاحبها يمكن أن يؤمن بها الإنسان أو يرفضها على نحو اعتباطى. إن الإسلام دعوى منطقية ضرورية ذات خطورة وأهمية، كما أن له فعاليته على نطاق عالمى .. إنه دعوى ملزمة للبشرية ، من حقه أن تعترف به البشرية وتذعن له ، أما اعتباره دعوى منطقية ، فالسبيل الوحيد لمواجهته يجب أن تكون بمنطق مقابل وهو أمر ينبغى علي الملتزمين بالإسلام أن يرحبوا به ثم يواجهوا الحجة بالحجة . (٥٩)

إن الإسلام هو - قبل كل شئ - " نظام" للحياة البشرية ، ذو خصائص مميزة ، نظام يقوم على أساس تحكيم شريعة الله وحدها كما

هي مبينة فى كتابه وسنة رسول الله ، بل هو المدلول الأول لهذه الشهادة ، المدلول الذى لا يتحقق لهذه الشهادة بدونه وجود في الضمير الإنسانى ، ولا في حياته سواء ، إن الناس في جميع الأنظمة الأرضية يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، حين يتحاكمون إلى غير شريعة الله . يقع هذا في أرقى الديموقراطيات ، كما يقع في أحط الديكتاتوريات سواء " (٦٠)

إن أولى خصائص الألوهية هي حق تعبيد الناس وتطويعهم للشرائع والأوامر . حق إقامة النظم والأوضاع والمناهج والشرائع ، والقيم والموازين ، وحمل الناس على اتباعها .. وهذا الحق في جميع الأنظمة الأرضية يدعيه بعض الناس - في صورة من الصور - ويرجع الأمر فيه إلى مجموع من الناس - على وضع من الأوضاع - وهذه المجموعة من الناس التى تخضع الآخرين لأنظمتها وأوضاعها ومناهجا وشرائعها ، وقيمها وموازينها ، هى الأرباب الأرضية التى يتخذها الناس في جميع أنظمة الأرض أربابا من دون الله ، ويسمحون لها بادعاء الحاكمية ومزاولتها ومزاولة ابتداع الأنظمة والأوضاع ، والمناهج والشرائع ، والقيم و الموازين - كما يسمحون لها برفض ألوهية الله سبحانه وربوبيته في الأرض - وذلك عن طريق السماح لها بتنحية شريعة الله عن الهيمنة وحدها على حياة الناس كلها . فالإقرار بألوهية الله - سبحانه - وربوبيته لايقوم إلا حين تقر النفس بألوهيته ، وربوبيته في السماء وفى الأرض ، في الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، في ضمائر الناس وشعائرهم وفي حياتهم وواقعهم سواء(٦١) بحيث لا تخرج جزئية واحدة من جزئيات الحياة البشرية - في الدنيا أو الآخرة - عن سلطان الله إلى سلطان سواه ، وهذا هو مدلول قول الله سبحانه : " وهو الذى في السماء إله وفي الأرض إله " (الزخرف/ ٨٤) .

ومن هنا تأتى الدعوة إلى (التوجيه الإسلامى) أو (التأصيل

الإسلامي) ، أو (الأسلمة).. إلى غير ذلك من مصطلحات تختلف في البني اللفظية وتتحد في الهدف .

إن اعادة صياغة أصول التربية في ضوء الإسلام هو ما نعنيه بأى مصطلح من هذه المصطلحات ، وبالتالى نقصد إعادة صياغة المعلومات وتنسيقها وإعادة التفكير في المقدمات والنتائج المتحصلة منها وتقييم الاستنتاجات التى انتهى إليه هذا المجال من مجالات المعرفة التربوية ، وإعادة تحديد الأهداف، على أن يكون كل ذلك بطريقة تجعل فروع المعرفة التربوية تثرى التصور الإسلامى وتخدم أهداف الإسلام .

وللوصول إلى ذلك الهدف ، لابد لقضايا الإسلام الأساسية – ونعني بها وحدة الحقيقة ووحدة المعرفة ووحدة البشرية ووحدة الحياة ، والإيمان بوجود هدف من وراء خلق الكون للإنسان ، وعبودية الإنسان لله – لابد لهذه القضايا كلها أن تحل محل التصورات الغربية وأن يتحدد علي أساسها كيفية إدراك الحقيقة وتبويبها . ولابد لقيم الإسلام أيضا – ونعنى بها استخدام التربية لسعادة الإنسان ، وتفتح قدرات الإنسان دون عوائق ، وإعادة النظر في العلاقات القائمة بين أنواع المخلوقات بما يجسد الحكمة الإلهية في خلقها ، وبناء الثقافة والحضارة ، وبناء منارات إنسانية بارزة في العلم والحكمة والبطولة والفضيلة والتقوى والطهر – على قيم الإسلام هذه أن تحل محل القيم الغربية فتقوم هي بتوجيه النشاط العلمى في كل مجال.(٦٢) .

وليس في مقدور مثل هذه الدراسة المحدودة مكانا وزمانا أن تضع الأسس والمنطلقات التى يمكن أن تقوم عليها اصول التربية لتتسم بالفعل بالصيغة الإسلامية، فمثل هذا العمل يحتاج إلى جهد الجماعة ويحتاج إلى مئات الصفحات وإلى زمن طويل ، ومن هنا فاننا نسوق عددا من المؤشرات

التى تدور حول منطلقات ومقومات تعد اساسا جوهريا في التصور الإسلامى يستحيل اعتبار أصول التربية (إسلامية) الإ إذا توفرت في إطارها الفكرى ومعينها الذى تتغذى منه.

للدكتور زغلول النجار تصور النجار تصور نتبنى هنا معظم خطوطه العريضة ونكمله ببعض الأفكار التى تخص مجال أصول التربية:

١ - التأكيد علي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والعمل على تطهير الكتابات التربوية من أية إشارة يمكن أن تشكك في ذلك من قريب أو بعيد ، بغير مساس بالمنهج العلمى ذاته أو حجر على العقل البشرى في انطلاقه للتعرف على هذا الكون وسننه .

٢ - التأكيد على قيمة العلم في الإسلام والدعوة إليه ، والإقرار بأنه فريضة على كل مسلم ومسلمة ، فالإسلام يطالب العقل البشرى بالنظر في هذا الكون والتأمل في بديع صنعه لأنه بذلك يتعرف على خالقه ويستخلص شيئا من السنن الكونية التى تمكنه من عمران الأرض والآيات القرآنية التى جاءت في هذه المعاني قد جاوزت السبعمائة آية .

٣ - ولما كان الإسلام دين دعوة، فإن المسلم مطالب بأن يعلم المسلمين الآخرين ما توصل إليه من نتائج خلال عملية بحثه ووعيه وإدراكه ، وهو لكى يحسن هذا لابد له من معرفة أسس عملية التعلم والتعلم وطرقها ونظمها وغير ذلك مما تتناوله علوم التربية .

٤ - إبراز عظمة الكون وكل مافيه من مخلوقات (جمادا ونباتا وحيوانا وطاقات وظواهر) ، والتأكيد علي أن هذا الكون الشاسع ، المحكم البناء لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه ، وإنما لابد له من موجد قد اوجده وهو الذى يرعاه ، فالاحتمالات الرياضية للصدفة في نشأة الكون

معدومة فعلا مما يجزم بأن الكون لا يمكن أن يكون قد تواجد إلا بتدبير مسبق وحكمة بالغة ولا أن يستمر في وجوده هذا الإ برعاية خالقه.

٥ - وإيمان الإنسان بوجود خالق لهذا الكون يستتبع التزامه بتعاليم هذا الخالق وأوامره ونواهيه في تربية المخلوق الإنسانى على اعتبار القاعدة المنطقية التى تؤكد بأن خالق الشئ هو الأعلم بكيفية تنشئته وتكوينه ، وبالتالى فإن عالم أصول التربية المسلم يجد من المحتم عليه أن تكون العقيدة الإسلامية هى الهادية له وهي المكونة للبذور التى يبذرها في شخصية المتعلم كى ينشأ على هدى .

٦ – التأكيد على أن هذا الكون المتناهى في الاتساع مبنى على نفس النظام من الذرة إلى الخلية الحية ، إلى المجموعة الشمسية . ثم إن مكوناته على تباينها يمكن ردها إلى لبنات أربع هى : المادة والطاقة والزمان والمكان . وقد توصل العلم إلى أن المادة علي اختلاف صورها ترد في أصلها إلى غاز الهيدروجين (أخف العناصر المعروفة) ، وأن الطاقة بمختلف أنواعها والجاذبية لابد أن يلتقيا في شكل واحد للطاقة ، وبأن الطاقة والمادة شئ سواء ، وبأن الزمان والمكان شئ متواصل ، وبذلك تتحلل مركبات الكون المعلومة لنا إلى شئ واحد لا نعرف كنهه ، ولكه يمثل الوحدة العظمى التى تجرى في هذا الكون كله ، وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على وحدة الخالق سبحانه وتعالى .

٧– إن هذا الكون ليس أزليا فقد كانت له في الأصل بداية ، وأنه لا يمكن أن يكون أبديا لأنه لابد أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية ، والعلم بمختلف تخصصاته يؤكد على ذلك ، ولابد من الإشارة إلى ذلك المعني في معرض المناقشات كلما لزم الأمر بلا افتعال .

٨ - التأكيد علي أن العلم في جوهره هو محاولة جادة للوصول إلى الحقيقة ، وعلي ذلك فلابد لكل مشتغل به من التذرع بصفات الأمانه والدقة والرغبة الصادقة في التوصل إلى المعرفة ، وعلى أن البحث العلمى المتميز بالإخلاص هو نوع من الجهاد الذى يؤجر عليه الإنسان ، وكذلك التأكيد على أن المنهج العلمى أسلوب في التفكير والعمل ، كل من يتبعه بصدق يصل إلى قدر من المعرفة، وهو مجال يتنافس فيه المتنافسون.

٩ - إن إبراز العلم الإنسانى لا يتعدى كونه محاولة بشرية لتفسير الظواهر الكونية المحيطة بالإنسان والاستفادة بها في عمران الأرض ، وعلى ذلك فليس في وسع الإنسان أن يصل إلى جوهر الأشياء لأنه لا يستطيع أن يصف سوء مظهرها واضطراد تأثيرها ، ومن هنا فلا يمكن لاستنتاجاته أن تمثل الحقيقة المطلقة ، فالعلم البشرى محكوم بأحاسيس الإنسان المحدودة وبإمكانات عقله المحدودة أيضا ، والتى تجعل من استنتاجاته شيئا لا يعدو أن يقع في حدود دائرة الإنسان . ثم إن جميع الاستنتاجات العلمية محدودة كذلك بوضعه على كوكبه الأرضى في زمان ومكان معين ، ومن هنا تأتى استنتاجاته كلها نسبية .

١٠ - ضرورة التأكيد على أن العقل البشرى يمثل إحدى النعم الكبرى التى من الله بها على الإنسان ، وإنه من قبيل الشكر على هذه النعمة ، استخدامها إلى أقصى حدود إمكانياتها وصدق الله العظيم إذ يقول ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا .

وإذا كانت هذه خطوط عريضة تتعلق في معظمها بالله والكون ، ذلك الأساس الأول لقيام فلسفة للتربية ، فإن هناك نقاطا أخرى تستحق وقفة أكثر تفصيلا

فلقد جاء الإسلام لكي يؤكد موقفه من العمل الحضارى من خلال رؤية متوازنة تضم جناحيها علي كل ما هو روحى أخلاقى ومادى جسدى في الوقت نفسه ، ونجد أنفسنا ونحن نطالع كتاب الله أو نقرأ سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بإزاء تأكيدات عديدة ، آيات وأحاديث ، تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة ، وتدفعها إلي أن تبذل جهدها من أجل التنقيب على السنن والنواميس في أعماق التربة ، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذرات .. إننا بازاء حركة حضارية شاملة تربط ، وهي تطلب من الإنسان أن ينظر في السموات والأرض بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع ، بين التلقي من الله والتوغل قدما في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وأغاميضها ، بين تحقيق مستوى روحى عالى للإنسان على الأرض وبين تسخير قوانين الكيمياء والفيزياء والرياضيات لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم والعلو الحضارى على المستوى المادى (المدنى) . ولم يفصل الإسلام بين هذا وذاك ، إنه يقف دائما موقفا شموليا مترابطا ويرفض التقطيع والتجزئ في تقييم الموقف (الحيوى) أو الدعوة إليه .. ولقد انعكس هذا (التوحد) بين قيم الروح والمادة بوضوح كامل عبر مسيرة الحضارة الإسلامية التى قطعت القرون الطويلة وهى تحتفظ بتوازنها المبدع بين الطرفين ، وأنجزت وابتكرت وكشفت الكثير من المعطيات الحضارية التى لم تهمل جانبا من الجوانب المرتبطة جميعا ارتباطا وثيقا بخلافة الإنسان على الأرض ، ودوره الحضارى في العالم ، وما كان لها إلا أن تكون كذلك وهى تعمل من خلال مناخ حضارى متوازن نتلمسه بوضوح في كثير من آيات القرآن الكريم . (٦٤)

ومناط الأمر في تربية الإسلام (تزكية النفس) ومن هنا فإن حدة الذكاء وسعة العلم لا يمكن أن يغنيا فيها عن شرف الخلق . إننا نمقت

الذكى الشرير ، ونخشى من معاملته ، ونعتقد أن النفس الصغيرة لا تزيدها المعرفه الكبيرة إلا قدرة علي الأذى ، وطاقة علي الإساءة !! ومن الخطأ أن نحسب الدين معرفة نظرية أو قراءة طويلة ، بل إن الدين إذا لم يكن كبحا للهوى وامتلاكا للطبع ، فلا خير فيه ولا جدوى منه . (٦٥)

وقد اكد القران الكريم أن تزكية النفس الإنسانية هى الغاية من شتى التكاليف ، والتزكية المنشودة هي التربية الصحيحة ، هى تصفية المعدن الإنسانى من شوائبه ، وجعل الشهوات كلها تحت رقابة العقل المؤمن فلا تطغى ولا تجمح ، ومن ثم فلابد من عمل يقوم به المرء داخل نفسه حتي تصلح . عمل مرهق جاد يكسر الرغبة الجامحة ، ويخضع الإنسان لوصايا الرحمن ﴿ فأمّا من طغىٰ (٣٧) وآثر الحياة الدُّنْيا (٣٨) فإنّ الجحيم هي المأْوىٰ (٣٩) وأما منْ خاف مقام ربه ونهى النَفس عن الهوىٰ (٤٠) فإنّ الجنَّة هي المأوى ﴾ (النازعات/٣٧-٤١)

وأشكال العبادات لا تصنع ذلك التغيير الحاسم ، فإذا لم تمح الصلوات الحسد من نفوسنا ، فلا صلاة لنا . السجود الحقيقى ليس إنطواء الجسم أمام الله ، بل هو انقياد القلب لهدايته ووصايا " الخيط المعقد لا ينحل ويسترسل إلا بفك عقده عقدة عقدة ، ولا تفيد في ذلك تغطية ولا تحلية ، والنفس المعقدة لا تعود لفطرتها ولا تستقيم مع سجيتها إلا بعد ذهاب عللها ، وعودة العافية إليها . فإذا كانت العبادات استعانة بالله علي بلوغ هذا الهدف ، وإذا قبلها الله ، وأعان الضارع فأصلح نفسه ، وأقام عوجه ، فالعبادة صحيحة مقبولة ، وإلا .. فالوضع لم يتغير ...» (٦٦)

وتتجلى أهمية تركيز تربية الإسلام على (تزكية النفس) من مكانة الإنسان في التصور الإسلامى ، هذه المكانة التى تحدد إلى حد كبير هدف

العملية التربوية بمختلف جوانبها وأركانها بحكم أن (الإنسان) هو موضوع التربية ولحمتها وسداها . . هو المادة الخام التى يحاول المربى ان (يصنع) منها صناعة تقيم حياة تنبض بالفعالية علي الأرض ، فعالية بناء وإعمار وفعالية فضيلة وتقوى .

إن هذه (المركزية) لقضية (الانسان) في العمل التربوى هي التى تملى على كل عمل أصولى في التربية أن يضع التصور الإسلامى له في المحل الأول ومركز الأساس في بناء البشر وتحريك الجماعة الإنسانية ، فماذا يقول هذا التصور ؟ (٦٧)

١ الإنسان مخلوق خاص ، ذو كيان متميز ، تميزه في ازدواج عناصر تكوينه. مستخلف في الأرض ، مزود بخصائص الخلافة ، وأول هذه الخصائص : الاستعداد للمعرفة النامية المتجددة، ومجهز لاستقبال المؤثرات الكونية والانفعال بها والاستجابة لها . ومن مجموع انفعالاته واستجاباته يتألف نشاطه الحركى للتعمير والتغيير والتعديل والتحليل والتركيب والتطوير في مادة هذا الكون وطاقاته .. للنهوض بوظيفة الخلافة

٢ - وهو كائن كريم على الله ، ذو مركز عظيم في تصميم الوجود - على الرغم من كل ما في طبيعته من استعداد للضعف والخطأ ، والقصور والتردى - ولكن استعداده للمعرفة الصاعدة ، ولحمل أمانة الاهتداء ، وللتبعة ، يجعله كائنا فريدا ، يستحق تكريم تلك العناية الالهية به بإرسال رسله ورسالاته .. وهو أكرم من كل ما هو مادى ، لأن كل ما هو مادى مخلوق له.

٣ - وهو كائن يتعامل مع الكون كله ومن فيه وما فيه .. وهو يتعامل مع ربه كما يتعامل الملأ الأعلى من الملائكة ، ومع الجن والشياطين ، ومع

نفسه واستعداداته المتنوعة ، ومع سائر الأحياء الكونية ، ومع طاقات الكون الظاهرة والخفية ، ومع مادة هذا الكون وأشيائه .. والكون مهيأ للتعامل معه . كما انه مجهز بوسائل التعامل مع الكون، ومع رب الكون ، بما ركب فيه من روح وعقل وحواس وقوى وطاقات تناسب ازدواج عناصر تكوينه.

٤ وهو مستعد – حسب تكوينه الذاتي – لأن يرتفع إلى أرقى من افاق الملائكة المقربين كما هو مستعد لأن ينحط إلى أدنى من دركات الحيوان البهيم ، وذلك حسب ما يبذل من جهد ورغبة واتجاه ومحاولة في الارتباط ببارئه ومنهجه وتوجيهه .. فهو – من ثم – أعجب كائن ، وأغرب جهاز ، يحتوى هذه الاستعدادات المتباعدة الآماد، ولا تعرف أن هناك كائنا اخر له هذه الخصائص ، سواء الملائكة ، أو الشياطين ، أو صنوف الحيوان ، أو عناصر المادة وأجهزتها.

٥ وهو مصمم علي قاعدة الزوجية التى هى خاصية كونية وحيوية ، وعلي قاعدة التكامل بين الزوجين ، لا التماثل – وهى كذلك خاصية كونية وحيوية وقبل ذلك . علي أساس التناسق مع الكون والقربى في الماهية المادية ، بزيادة ذلك العنصر الفريد فيه – النفخة من روح الله – وهي أمر عير مجرد الحياة الحيوانية .. وهو العنصر الذى خط له طريقه الخاص الذى يعترف الآن بخصوصيته حتي أصحاب الداروينية .

وتربية الإسلام للإنسان إذ تقوم علي تزكيته وتطويره ، فهى من ثم تقر بسنة التغير التى أودعها الله في كونه.

إن الكلام عن تبدل المجتمعات من حال الى حال وهلاك الأمم والأقوام والقرون، أى الأجيال ، كثير جدا في القرآن وهو مقترن بالدعوة إلى التفكر والتأمل والأعتبار ، ويغلب عليه الصيغة المجردة من التفصيلات

التاريخية والحوادث الشخصية ، فهو أقرب إلى صيغ علم الاجتماع منه إلى التاريخ . ولو استعرضنا هذه الآيات الكثيرة لوجدنا أن القران يخرجنا من النطاق المحدود في إطار زمن معين وقبيلة معينة ويجعلنا نطل على المجتمع البشرى في إطاره العام الشامل للشعوب والأمم الخاضعة كلها لسنن واحدة في التغيير . وفي القران الكريم والحديث إشارات لعوامل التغيير وليس ذلك على سبيل الحصر ولا على طريقة البحث العلمى ، لأن ذلك متروك لتفكير البشر واجتهادهم ، فالقرآن كتاب هداية لجمهرة الناس وليس مقصورا علي الخاصة ، وهدفه هدايتهم وإرشادهم ودلالتهم ، ولذلك يكفى ان يشير القرآن ويدل على أن الظلم والبطر والترف تسبب هلاك الأمم ، لتحصل العبرة والفائدة العملية ، ولكن علي العالم الباحث أن يفتش فيما وراء كلمة الظلم من أنواع كالظلم السياسى والاستبداد والاستعلاء والظلم الاقتصادى والمالى كظلم المرابين والأغنياء للدائنين والفقراء وظلم القضاة والحكام للمتقاضين والمحكومين ، هكذا له أن يحلل مفهوم البطر والترف والإسراف الواردة كذلك في آيات كثيرة على أنه من أسباب تبدل النعم ودمار الأمم . (٦٨)

وإن إبراز دور الإنسان في منهج التغيير ، بدرجة كافية ، غدا من الضرورات الملحة جدا ، لأن التصور الإسلامى جعل من الإنسان مدارا للحركة الحضارية ، وأوكل إليه مهمة التغيير والبناء ، ولكنه بتحقيق الخلافة الإلهية علي هذه الأرض ، وإدارة الصراعات المختلفة التى تجرى فوقها ، واستغلال ما علي ظهرها واستخراج ما في باطنها ، مستفيدا من الزمن لإنتاج الحضارة (٦٩)

ويقوم الإنسان بهذا الدور التاريخى من خلال عقله المدرك في عالم الشهادة ، وشعوره وتأمله وطاقاته الكثيرة التى زوده الله تعالى بها ، لكى

يصنع تاريخه على هذه الأرض بمعرفة الله تعالى، فبحركته من خلال حريته الملتزمة بتحرك التاريخ ، ويتطور الزمن وتتغير مظاهر الحياة ، إن الجبرية التى فرضت على الإنسان المسلم من خلال صور التحكم الغربى ليست من الإسلام في شئ ، فأيات القرآن الكريم صريحة في إعطاء هذا الدور المبدع للإنسان وهو صنع تاريخه وحياته على هذه الأرض ، من خلال رؤيته الربانية المنبثقة من تصوره الإسلامى الشامل(٧٠).

ونحن إذ نشير إلي هذه الملامح والمقومات ، أو بمعني أصح ، لعدد رئيس وهام منها مما يكون أصولا للتربية ، يبرز تساؤل هام عن الحكمة في عدم كشف التصور الإسلامى عن قوانين الطبيعة بينما يكشف عن الكثير من القواعد والسنن الإلهية في عالم الإنسان قيما وأخلاقا وتنظيما ؟

في مجال الطبيعة والأشياء لم يشأ الله سبحانه أن يكشف للإنسان عن قوانينها ، لأن هذا يعنى إهمالا لطاقات الإنسان الخلاقة وقدرتها علي الكشف والإبتكار، ولو حدث ووجد الإنسان نفسه فجأة أمام القوانين الطبيعية علي حقيقتها ، لألغيت إذن - وبشكل محتم - كل قدراته ومحاولاته ، ولأسلم نفسه لكسل فكرى واتكالية لم يرد الله سبحانه للإنسان ان يقع فى إسارها ، أما القانون الأخلاقى والمنهج الدينى فهل كان من المنطق أن يظل غامضا وأن يسعى الإنسان بنفسه للكشف عنه ؟! إن هذا القانون وذلك المنهج ما داما يرتبطان أساسا بالعالم الأوسع ويمتدان إلي ماوراء الحس الظاهر للعيان ، ما داما ينأيان دائما عن رؤية الإنسان المباشرة وحريته المحدودة ، وحركته النسبية ، فليس من السهل عليه إذن أن يترك وحده للسعى وراء أهداف لم يهيأ للكشف عنها. إن تجربة (الخطأ والصواب) تغدو مجدية في مجال التعامل مع الطبيعة لأنها ستعلم الإنسان طريقة جديدة ، أو تعطيه ابتكارا جديدا ، وما منجزات الغرب التقنية

المعاصرة إلا (تراثا) أسهمت في صنعه وبنائه معظم أمم الأرض وشعوبها بعد أن مارست كثيرا من تجارب الخطأ والصواب ، ولا زال العلم الى الآن ينفى اليوم ما أثبته بالأمس ، ويثبت ما سوف ينفيه في الغد ، ولكن هذا النفى والإثبات ، وهذه الظنية التى تحكم العلم لم تؤثر في يوم من الأيام على التطور المستمر للإنجازات العلمية ، بل إن هذه في صعود مستمر نحو الأكثر والأحسن ، أما في المجال الأخلاقى والديني فلا يمكن للإنسان أن يمارس تجربة الخطأ والصواب لأن هذه ستكون على حساب كينونته ووقته وجهده ، ولأنها ـ وهذا هو الأهم - سوف لن تقدم له الصواب المطلق الذى لا خطأ بعده في يوم من الأيام ، ذلك أنه لا يملك الوسائل التى تمكنه من تمحيص هذا الصواب .ثم إن عملية النفى والإثبات هنا ليست سوى عملية سلبية ، إذ إن النفى في عالم الأخلاق سيوقع الأمم والشعوب في فوضى لاحد لها ، وسيصيب الإنسان نفسه بمشاكل باطنية وقلق وتمزق داخلى ، يشلانه عن المضى في طريق التطور والتحضر (٧١)

وإذ تشكل الخطوط العريضة للتصور الاسلامى منطلق الدراسات الأصولية في التربية ، يصبح من الضرورى أن ينعكس هذا التصور في فلسفة التربية بصفة خاصة .

وعلى سبيل المثال ، فإن فلسفة التربية الإسلامية تعكس مبادئ الخلق الهادف ، والوحدة ، والاتزان ، في تفسيرها للكون ، والإنسان والحياة بصورة متميزة علي النحو التالى. (٧٢)

فمبدأ الخلق الهادف ، يعني أن التربية الإسلامية ، صورة من صور العبادة ، تعني أولا : بترسيخ الإيمان بالله في كيان هذا الإنسان المخلوق له خلقا هادفا ، وتعنى ثانيا بتجلية جوانب العظمة في خلق هذا الكون ، واكتشاف نواميسه وقوانينه والغاية من مسيرته . وتعنى ثالثا ، بتنظيم هذه

الدنيا لنودى هدفها المرجو ، فالتربية الإسلامية من هذه الناحية تربية محورها الإنسان المؤمن العابد ، وميدانها الكون الذى يسير وفق نواميس وقوانين لمستقر وغاية رسمها الخالق الواحد ، وهدفها الحياة المؤمنة ، التى تجعل الحياة الدنيا طريقا طبيعيا إلى الحياة الآخرة ، قال تعالى " ويرى الذين أُوتُوا العلم الّذي أُنزل إليْك من رّبّك هُو الْحقّ ويهدي إلىٰ صراط العزيز الحميد﴾ (سبأ /٦)

ومبدأ الوحدة ، يعنى أن التربية الإسلامية ، تنظر إلى هذا الكون باكمله ميدانا لها بارضه وسمائه ، بإنسانه وأحيائه ، بنباتاته وجماداته ، فالعلوم والمعارف ، كلها تكون التربية الإسلامية ، والتربية الإسلامية ، ليست مرادفة للتربية الدينية التى تعنى بالعلوم الدينية فقط ،، فنصيب التربية الإسلامية من خلال العلوم الطبيعية والحياتية والفلكية لايقل عن نصيبها من خلال العلوم الدينية ، ولحكمة أرادها الله ، جاءت الآية الكريمة " إنما يخشى اللّه من عباده الْعُلماءُ﴾ (فاطر/ ٢٨) بعد ذكر آيات الله الكونية في الجبال المختلفة ألوانها ، وفي اختلاف حياة الأحياء والنباتات كذلك ، إن الإنسان ليتعبد الله في النظر إلى ملكوت السموات والأرض والتأمل في جميع الظواهر النفسية والكونية (٧٣).

ومبدأ الاتزان يعني أن التربية الإسلامية متوازنة، في نظرتها إلى الكون المتوازن، والإنسان المتوازن ، والحياة المتوازنة ، تنظر إلى التوازن في حقول المعرفة الكونية والإنسانية والاجتماعية ، فتجعل من بعضها فرض عين يلزم كثقافة عامة للنجاة في الدارين، ومن بعضها فرض كفاية في حدود مصلحة الجماعة ، وما يحتاجه المجتمع من الاختصاصات المختلفة(٧٤) ، وتوازن التربية الإسلامية كذلك بين القول والفعل

﴿ يا أيُها الّذين آمنُوا لم تقُولُون ما لا تفعلُون (٢) كبُر مقْتاً عند اللّه أن تقُولُوا ما لا تفعلُون ﴾ (الصف/٢-٣)والتربية الإسلامية توازن بين حاجات الإنسان المادية وحاجاته النفسيه ﴿الّذي أطْعمهُم مّن جُوعٍ وآمنهُم مّن خوْف﴾ (قريش/٤) .

أما بعد .....

فإذا كنا قد أوضحنا إن (أصول التربية) تعنى بالمسالك التى تصل بين الحقل التربوى وبين عدد من النظام والعلوم ذات العلاقة الفعالة المؤثرة كالنظام السياسى ، والنظام الإجتماعى والنظام الثقافى ، والفلسفة ، والعلوم الشرعية ، والاجتماعية ، والتاريخ .. إلخ ، فإن معنى ذلك أن التوجيه الإسلامى لهذه الأصول يستحيل أن يتم بمعزل عن التوجيه الإسلامى في جملة العلوم الاجتماعية والإنسانية . فأصول التربية لا تنشئ نظريات سياسية مثلا ولا تقعد في هذا الحقل وإنما تعتمد علي ما يصل إليه علماء السياسة لترسى دعائم (الأصول السياسية) ، أي إن خطوة التوجيه الإسلامى هنا ، لابد أن تتم أولا في العلوم السياسية .. وهكذا .

بيد أن هذا لا يعنى أن تظل أصول التربية بانتظار الآخرين ، فلها حقلها الخاص بها وهو فلسفة التربية الذى يقوم على الإطار العقائدى للمجتمع ، وهذا هو مابسطنا القول فيه في الصفحات السابقة مؤكدين أن التوجيه الإسلامى هنا يعنى تطبيق النهج الإسلامى وتبنى التصور الإسلامى كمنطلق تقوم عليه فلسفة التربية .

كذلك فلنا أن نقترح فيما يلى عددا من الخطوات الأساسية التى تعين الباحثين علي استكمال خطوات التوجيه الأسلامى ، منها :

١ - وضع قائمة يتفق عليها بأهم المفاهيم الحاكمة في الحقل

التربوى والتي تشكل قضايا أساسية لفلسفة التربية ، كمفهوم الخبرة ومفهوم العمل ، ومفهوم النشاط ، ومفهوم الحرية ، ومفهوم التفكير .. الخ .

٢ – والخطوة المكملة للخطوة السابقة ، القيام بعملية تحليل لآيات القرآن الكريم لاستخراج الآيات القرآنية التي تتصل اتصالا مباشرا بكل مفهوم من هذه المفاهيم .

٣ – القيام بنفس الخطوة بالنسبة لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

٤ – القيام بدراسات مختلفة من خلال التفاسير الكبرى للقرآن الكريم وآراء أهل الفقه والاجتهاد وعلماء التربية والنفس حول كل مفهوم من هذه المفاهيم .

٥ – دراسة نقدية لمناهج البحث القائمة في العلوم التربوية لمحاولة الكشف عن سلبياتها وإيجابياتها بالنسبة للبحث العلمى في القرآن الكريم والسنة النبوية بهدف التحليل الأصولى التربوى ، ومحاولة الوصول إلى حسم قضية المنهجية وما إذا كانت هناك منهجية خاصة بهذا المجال أم لا ، وما معالم هذه المنهجية ؟

٦ – نشر وتحقيق المخطوطات التى مازالت في المكتبات العامة والخاصة ، علي ألا يقف الأمر عند حد الطباعة الحديثة بل (التحقيق) بالمعنى الكامل والشامل ، وضرورة قيام دراسات نقدية لما يتم نشره وتحقيقه .

٧ – دراسة مقارنة لغايات التربية في الإسلام وأساليبها مع غايات وأساليب الأمم المتقدمة وأسباب القصور التطبيقى للمدرسة التربوية الإسلامية المعاصرة .

٨ - دراسة مقارنة لغايات التربية في الصدر الأول والعصور اللاحقة وأهم التغييرات في الغايات والأساليب التربوية .

٩ - دراسة مقارنة لأساليب التربية والتعليم قبل الإسلام وبعد الإسلام وأهم التغييرات التى جاء بها الإسلام .

١٠ - دراسة نقدية للآراء التربوية التي قال بها فلاسفة الإسلام وفقهاؤه ومربوه في مجال التربية والتعليم .

١١ - دراسة نقدية للدور التربوى الذى قامت به المدرسة في العصور الإسلامية السابقة

١٢ - دراسة تقويمية للأدوار التى قامت بها المساجد في التاريخ الأسلامي .

١٣ - مجموعة من الدراسات الميدانية على طلاب المدارس والجامعات للكشف عن الوعي الدينى لديهم ومعوقات الوعى السليم ومظاهر الوعى الزائف.

١٤ - مجموعة دراسات لتحليل محتوى برامج الإذاعة والتلفزيون والصحف والمجلات من المنظور التربوى الإسلامى .

١٥ - دراسات نقدية لفلسفات التربية الغربية من خلال المنظور التربوى الإسلامى .

obeikan.com

الهوامش

١ – م.م صديقى : الأسس الإسلامية للعلم ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد ١٧ ، المحرم / ربيع الأول ١٣٩٩هـ ص١٥ .

٢ – محمد الهادى عفيفى : في أصول التربية ، الأصول الثقافية ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٧٩ ، ص ٦٣ .

٣ – عبد السيمع سيد أحمد : مكانة التربية بين العلوم ، القاهرة ، دراسة تحت النشر ، على الألة الكاتبة ، ١٩٩١، ص ٣٤ .

٤ – إسحق موسى فرحان : أزمة التربية في الوطن العربى ، عمان ، دار الفرقان ، ١٩٨٦، ص ١١ .

٥ – المرجع السابق ، ص١٢ .

٦ – عبد الحميد أبو سليمان : إسلامية المعرفة وإسلامية العلوم السياسية ، المسلم المعاصر ، العدد٣١، رجب/ رمضان ١٤٠٢هـ ،ص٢٤ ٧ – المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٨ – إسحق فرحان وأخرون : نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية ، عمان ، مطابع وزارة الأوقاف ، ١٩٨٠ ، ص١ .

٩ – المرجع السابق ، ص٢ .

١٠ – المرجع السابق ، ص٥ .

١١ – زغلول راغب النجار : أزمة التعليم المعاصر ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد ١١ رجب/ رمضان ١٣٩٧هـ، ص١٥٣ .

١٢ – المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

١٣ – محمد أبو السعود : الفكر الإسامى المعاصر ، مضمونه ومستقبله ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد ١٣ ، محرم / ربيع أول ١٣١٩٨ هـ ، ص٢٤

١٤ – محمود غازى : إسلامية المعرفة ، الفكر السياسى والدستورى ، مجلة المسلم المعاصر العدد ٣٤ ربيع ثانى / جمادى الثانية ١٤٠٣ هـ ص٧٥ .

obeikan.com

١٥ – المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

١٦ – المرجع السابق ، ص٧٦ .

١٧ محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٢، ص١٤ .

١٨ – المرجع السابق ، ص ١٥ .

١٩ – المرجع السابق ، ص١٦

٢٠ – محمد مهدى شمس الدين : العلمانية ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٩٨٣ ، ص١٥ .

٢١ – المرجع السابق ، ١٦ .

٢٢ – المرجع السابق ، ص١٨ .

٢٣ – المرجع السابق ، ص٧٦ .

٢٤ – المرجع السابق ، ص ٧٧

٢٥ – محسن عبد الحميد : : المذهبية الإسلامية والتغيير الحضارى ، الدوحة ، رئاسة المحاكم الشرعية ، كتاب الأمة ، جمادى الآخرة ، ١٤٠٤ هـ ص ٤٦ .

٢٦ – عادل حسين : نحو فكر عربى جديد ، القاهرة ، دار المستقبل العربى ، ١٩٨٥ ، ص ٢٦ ٢٧ – المرجع السابق ، ص ٢٧ .

٢٨ – أبو الحسن الندوى : الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ، الكويت، دار القلم ، ١٩٨٥ ، ص١٧٠ .

٢٩ – المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٣٠ – المرجع السابق ، ص ١٧١ .

٣١ – محمود محمد شاكر : رسالة في الطريق الى ثقافتنا ، القاهرة ، دار الهلال ، كتاب الهلال، سبتمبر، ١٩٩١ ، ص ٢١٩ .

٣٢ – المرجع السابق ، ص ٣٢٠ .

٣٣ - محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، القاهرة ، مكتبة الآداب ١٩٦٨، جـ٢، ص٢٩٤ .

٣٤ - المرجع السابق ، ص٢٩٥

٣٥ - يوسف القرضاوى : الحلول المستوردة ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٧٧ ، ص٢١.

٣٦ - المرجع السابق ، ص٢٢.

٢٧ - سعيد إسماعيل على : الفكر التربوى العربى الحديث ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة ، مايو ١٩٨٧ ، ص٥٦

٣٨ - سعيد اسماعيل على : دراسات في التربية والفلسفة ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٧٢ ص٩٩ .

٣٩ - المرجع السابق ص١٠٠ .

٤٠ - سعيد إسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٥، ص٥٧٠ .

٤١ - محمد عمر القصار : المنهج الإسلامى في تعليم العلوم الطبيعية ، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامى ، ١٩٨٤ ، ص٨٤ .

٤٢ - إساعيل راجى الفاروقى : الإسلام والمدنية ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد ٣٦ شوال / ذو الحجة ١٤٠٣هـ، ص٥ .

٤٣ - المرجع السابق ، ص٦ .

٤٤ - محمد معين صديقى : الأسس الإسلامية للعلم ، المسلم المعاصر ، العدد ١٨ ، رع/ربيع ثانى جمادى الثانية ١٣٩٩هـ ، ص٤٦

٤٥ - إسماعيل الفاروقى أسلمة المعرفة ، المسلم المعاصر ، العدد٣٢ ، شوال / ذو الحجة ١٤٠٢ هـ ، ص١٠ .

٤٦ – عماد الدين خليل : حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، كتاب الأمة ،. ١٩٨٥ ، ص٣١ .

٤٧ – المرجع السابق ، ص٣٢ .

٤٨ – إسماعيل الفاروقى : صياغة العلوم الإجتماعية صياغة إسلامية ، المسلم المعاصر، العدد // ٢٠ ، ذو القعدة / محرم ١٤٠٠ هـ ، صـ ٢٩ .

٤٩ – روبرت م . أغروس وزميله : العلم في منظوره الجديد ، ترجمة كمال خلاليلى ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة ، سلسلة عالم المعرفة ، فبراير ١٩٨٩ ، صـ٩ .

٥٠ – المرجع السابق صـ نفس الصفحة

٥١ – المرجع السابق ، صـ١٠ .

٥٢ – عون الشريف قاسم ، القرآن الكريم والحضارة ، المسلم المعاصر ، العدد ١٣ ، ص٨٠ .

٥٣ – محمد كمال جعفر : ثقافة المسلم المعاصر بين الأصالة والتجديد ، المسلم المعاصر، العدد الخاص ، المحرم : ربيع أول ١٣٩٦هـ ، ص١٥ .

٥٤ – المرجع السابق ، صـ١٧ .

٥٥ – المرجع السابق ، صـ١٨ .

٥٦ – المرجع السابق ، صـ ١٩ .

٥٧ – سعد مرسى أحمد وآخرون : المدخل إلى العلوم التربوية ، القاهرة ، عالم الكتبه ١٩٨٠ ، ص ـ ١٢٥ .

٥٨ – المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٥٩ – إسماعيل الفاروقى : أسلمة المعرفة ، المسلم المعاصر ، العدد ٣٢ ، صـ١٥.

٦٠ – سيد قطب : مقومات التصور الإسلامى ، القاهرة، دار الشروق ، ١٩٨٦ ، صـ١٨.

obeikan.com

٦١ - المرجع السابق، صـ ١٩

٦٢ – إسماعيل الفاروقى : أسلمة المعرفة ، مرجع سابق ، صـ١٤ .

٦٣ – زغلول راغب النجار : عن ضرورة إعادة كتابة العلوم من وجهة نظر إسلامية ، المسلم المعاصر ، العدد السادس ، ربيع أول / جمادى الثانية ١٣٩٦هـ، ص٣٤-٣٥ .

٦٤ – عماد الدين خليل : حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص ١٢٠-١٢١

٦٥ – محمد الغزالى : تراثنا الفكرى في ميزان الشرع والعقل ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٩١، صـ ٨٧ .

٦٦ – المرجع السابق ، صـ٨٨ . \

٦٧ – سيد قطب : مقومات التصور الإسلامى ، صـ٣٦١ .

٦٨ – محمد المبارك : نحو صياغة إسلامية لعلم الإجتماع، المسلم المعاصر، العدد ١٢، شوال/ ذو الحجة ١٣٩٧هـ، صـ٣٧ .

٦٩ – محسن عبد الحميد : المذهبية الإسلامية ، صـ٦١ .

٧٠ – المرجع السابق ، صـ ٦٢ .

٧١ - عماد الدين خليل : تهافت العلمانية ،بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٣، صـ١٩ .

٧٢ – إسحق فرحان وآخرون : نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية ، ص٢٣ .

٧٣ – المرجع السابق ، صـ٢٤ .

٧٤ – المرجع السابق ، صـ ٢٥.

obeikan.com